حسن حسني عبد الوهاب

خلاصة تاريخ تونس

مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من اقدم العصور الى الزمان الحاضر

الطبعة الثالثة
منقحة ومصححة
التزمتها " دار الكتب العربية الشرقية " ١٥ شارع باب المنارة تونس

حسن حسني عبد الوهاب

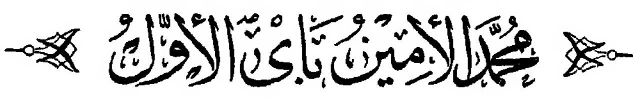
خلاصة تاريخ تونس

مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من اقدم العصور الى الزمان الحاضر

الطبعة الثالثة
منقحة ومصححة
التزمتها " دار الكتب العربية الشرقية " ١٥ شارع باب المنارة تونس

أهدي هذا تذكارا لابننا حسن حسني عبد الوهاب
١٣٧٢

حضرة صاحب الجلالة الملك المحبوب



عاهل المملكة التونسية

أدامه الله تعالى وأيده

الطبعة الثالثة

وفّق الله « دار الكتب العربية » في تونس الى اعادة طبع هذه (الخلاصة) للمرة الثالثة ، إجابةً لرغبة الكثير من طلبة مدارسنا العربية ، تلك التي نبني آمالنا المقبلة عليها •

وقد راجعت أُصول الطبعة الاخيرة ، واصلحت بقدر الطاقة ما تميّن اصلاحه ، وحورت البعض منهـا ، واضفت اليهـا فقرات وفصولا وخرائط جغرافية ، رجآء أن يزيدها ذلك شرحاً وايضاحا ، ريثما يعين الله بفضله على إخراج « تاريخ تونس الكبير » الذي عنيت بجمعه وتأليفه منذ احقاب •

ومن الباري - جل ثنـاؤه - استمد العون ، واليه أرغب في قبول العمل ، و أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، انه تعالى سميع مجيب •

عبد الوهـاب

عن تونس في المحرم ١٣٧٣



الفاتحة

لكل شعب حياة تشخّصها الحوادث يقضيها في أدوار كما يمرّ الحي بادوار العمر ، وهي حياته الذاتية التي تميّزه عن غيره من الشعوب حسب السنن العمرانية والنواميس الكونية التي أودعها الباري جل ثناؤه لنظام هذا العالم .

ولكل أمّة تاريخ تختلف أهميته باعتبار حظ تلك الامة ومشاركتها في حوادث المجتمع العام ، والمشاركة تكون على نسبة استعداد الامة ومواهبها وموقعها الجغرافي .

فحوادث العالم القديم أجمع كان يدور محورها على ضفاف البحر المتوسط ، منبع الاديان واصل التاريخ ، وقد انبتت سواحل هذا البحر مصريّين ، وفنيقيين ، وعبريين ، ويونان ، وروم ، وعرب ، غرسوا بتُربتها بذرة التمدن البشري ، فاينعت غصونها ، فاقتطفت من ثمارها كافة الامم وتوارثها الاجيال سابقاً عن لاحق . سنة الله التي قد خلت من قبل .

واذا سرح الانسان بصره في الخريطة يرى بين الاقاليم المحيطة بالبحر المتوسط بلاداً صغيرة تقسم ذلك البحر الى نصفين وتشق حافاته ما بين الشرق والغرب على السوية . تبارك الله احسن الخالقين !

وتلك البلاد الصغيرة هي (افريقية) قديماً او (القطر التونسي) اليوم.

فهذه المنزلة الطبيعية جعلت (تونس) من اول الدنيا مسلك الذاهبين ، ومورد الوافدين ، ونصبتها مطمحاً لامال الفاتحين .

لهذا السبب كان لتاريخ تونس أهمية عظمى تتجلى في ابهى منظر للبحث عن اخبارها ، والمنقب عن أثارها .

فتلك الحقيقة الكبرى هي التي بحثنا ـ وما زلنا نبحث ـ عن كنهها ، وربما توفقنا الى بيانها بوجه عام في ضمن هذه (الخلاصة) التي نقدمها اليوم الى النابتة التونسية خدمة للعلم ونشراً للتاريخ .

❀ ❀ ❀

لاجرم ان الانسان مجبول بفطرته الغريزية على حب بلاده ، والشغف باخباره ، لا سيما اذا كان لوطنه مكانة في التاريخ ومجد مشاهد بين الامم ، فهذه العاطفة الطبيعية واحتياج ناشئتنا الى مختصر في حوادث قطرهم كانا الباعث القوي على وضع هذه (الخلاصة) التي لم نقتصر فيها على سرد الوقائع وذكر السنين ، بل بسطنا من القول ما أمكن في سير العلم والرقي ومظاهر الحضارة في كل عصر من العصور ، كما عقدنا فصلا لتراجم النابغين في كل دور سوآء كانوا من المشتهرين في العلم والادب ، او في السياسة والحرب ، مما تكون به الفائدة أعم ، والمنفعة أعظم ، على اننا توخينا طريقة الاختصار والافادة إذ كان مقصدنا أيقاف ناشئة مدارسنا التونسة على تاريخ بلادهم وترغيبهم في مطالعته .

وغاية المأمول ان تصادف خلاصتنا هذه المرمى الذي قصدناه ، والنفع الذي اردناه ، والله ولينا ، عليه نتوكل واليه نيب

عبد الوهاب

تونس ـ ربيع الانور ١٣٣٢

التعريف بتونس

البلاد التونسية واقعة بالشمال الغربي من قارة افريقية، يحدها شمالا وشرقا البحر المتوسط، وجنوبا ولاية طرابلس والصحراء الكبرى، وغربا بلاد الجزائر، مساحتها تقرب من مائة وعشرين الف كيلومتر مربعا .

وتنقسم المملكة التونسية الى ثلاثة اقسام طبيعية هي :

اولا ـ جهة شمالية ـ تتركب من مزارع خصبة يمر على جانب عظيم منها وادي مجردة

ثانيا ـ الساحل ـ وهو يمتد من الناحية الشرقية على طول البحر . وهذا القسم يتألف من ارض خصبة . غزيرة العمران . وافرة السكان

ثالثا ـ قسم جنوبي ـ يشتمل على سهول عظيمة ومراعي شاسعة وواحات نخيل تبتدي منها الصحراء الكبرى

وتربة البلاد التونسية مخصبة صالحة للفلاحة من زراعة وغراسة . أشهر نتائجها فمن الحبوب القمح والشعير والذرة وغيرها، ومن الاشجار المثمرة الزيتون والنخيل والكرم وغالب الفواكه التي تنبتها البلاد الواقعة على شواطيء البحر المتوسط .

السكان والعناصر ـ يبلغ عدد سكان القطر التونسي الى ثلاثة ملايين ونصف من النفوس تقريبا يرجع أصلهم الى عدة عناصر أهمها : البربر وهم السكان الاصليون، ثم فنيقيون فيونان فروم فعرب . وفي هذه

العصور الاخيرة امتزج الشعب التونسي بمهاجري الاندلس والاتراك .
ويوجد من الاروبيين فرنسويون وايطاليون ومالطيون وأجناس مختلفون أخر.

تقسيم تاريخ تونس - ينقسم تاريخ تونس الى اربعة ادوار معتبرة
وهي : (١) القرطاجني - (٢) الروماني - (٣) البيزنطي - (٤)
الاسلامي . والدور الاسلامي يمكن تجزيئه الى اربعة ادوار ايضا وهي ؛
(١) العربي - (٢) العربي البربري - (٣) التركي - (٤) الحسيني

الدَّوْرُ الأَوَّلُ

القرطاجنيون

البربر - لم يخلد التاريخ أثراً عظيماً لامم البربر التي كانت تقطن بلاد افريقية قبل مجي الفنيقيين ، سوى اننا نعلم انهم كانوا قبائل منتشرة في البلاد لاحضارة لهم ، حياتهم على غاية من السذاجة ، فمساكنهم الاكواخ والدواميس ، واشتغالهم الصيد أو شيء من فلح الارض وتربية المواشي .

وأول من عَرَف البربر هم قدمآء المصريين في زمان الفراعنة ، وكانوا يعرفونهم باسم (اللّبُو) المشتق من نعت بلادهم (لِيبيا) ، وذلك ان البربر كانوا في سنين الجدب يشنّون الغارة على ساحات وادي النيل الخصيبة . وبهذه الوسيلة احتكّوا بالمدنية المصرية واقتبسوا منها بعض اسباب الحضارة وشيئاً من العقائد والتقاليد التي انتشرت من هنالك في الشمال الافريقي باسره .

والبربر عنصر قوي البنية ، موصوف بالجَلَد والصبر على مضاضة العيش ، وقد قسّمهم العرب الى فرعين عظيمين هما : البُتْر والبَرَانس ، وكل منهما يتجزأ الى قبائل وعشائر شتى ، مثل (لِوَاتَة) القاطنين بارض برقة مما يوالي مصر ، و (هَوَّارة) المخيمين بغرب طرابلس وبالقطر التونسي ،

و (صَنْهَاجَة) و (زِنَاتَه) في بلاد الجزائر ، وكذلك (كُتَامة) في جبال زُوَاوة ، و (مَصْمُودة) و (مِكْنَاسة) و (يَفْرِن) و (هِنتاتة) في المغرب الاقصى .

وللبربر لغة خاصة تعرف بالبربرية أو (الشلحة) لم يزل يتكلّم بها جانب كبير منهم لاسيما في جهة جبال زواوة ، وفي بلاد السوس والصحراء وفي الريف من المغرب الاقصى .

اما في القطر التونسي فلم يبقَ لها أثر الا في الجهات الجنوبية مثل جزيرة جربة أو في بعض نواحي مطماطة ، وهي لغة تخاطب ولا تكتب اذ ليس لها حروف مستعملة الآن ، وقد وصف ابن خلدون الامة البربرية بقولـه :

التعريف بالبربر

« البربر جيل من الآدميين ، سُكَّانُ المغرب على القِدم ، مَلَئُوا البسائط والجبال من تُلُولِه وأريافه وضواحيه وامصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ، ومن الخِصاص والشجر ، ومن الاشعار والاوبار ، ويضعن أهل العزّ منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة ، لا يتجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفر الاملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزّين من اهل الانتجاع والاضعان في نتاج الابل ، وظلال الرّماح وقطع السابلة ، وأكثر أثاثهم من الصوف ، ويشتملون الصمآء بالاكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالحلق ؛ ولغتهم (الشلحة) من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا لاجلها بهذا الاسم .

والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة وهي : هوّارة ، وزِناتة ، وضريسة ، ونفزة ، وكتامة ، ولواتة ، وغُمَارة ، ومصمودة ، وصنهاجة .

وما كان للبربر من الآثار ما يشهد اخباره كلها بانه جيل عزيز على الايام ، وانهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، مضاهون لامم العالم واجياله من العرب والفرس والروم » .

(من تاريخ ابن خلدون)

قدوم الفنيقيين ـ قبل الميلاد بالف سنة تقريبا قدم بعض البحّارة الفنيقيين [١] من الشام وأسسوا مراكز تجارية منها : اوتيكة [٢] وتونس وبنزرت وسوسة وكانت تسمى في القديم « حترموت » .

---

(١) الفنيقيون ـ أمة سامية الاصل واللغة كانت تقطن سواحل الشام ما بين جبل لبنان والبحر . واشهر مدن المملكة الفنيقية صيدا وصور وطرابلس الشام وبيروت .

(٢) اوتيكة ـ ويسميها ابن خلدون وطاقة مدينة فنيقية ـ كانت بهنشير بالشاطر الان ما بين بنزرت وقلعة الاندلس ، ولعل اسمها الحقيقي (عتيقة) بالنسبة الى قرطاجنة (المدينة الحديثة)

قرطاجنة ـ لا يعلم على وجه التحقيق متى وكيف تأسست قرطاجنة .

انما قيل ان أميرة فنيقية تدعى « عليسة » هاجرت من مدينة صور (١) ونزلت بساحل افريقية بمن كان معها فاشترت من البربر ساحة عظيمة اختطت بها قرية سماها الفنيقيون (القرية الحديثة) او قرطاجنة وذلك سنة ٨٨٠ ق. م. ولم تلبث قرطاجنة إلاّ قليلا حتى قويت شوكتها وسادت على بقية المدن الفنيقية التي بافريقية واخذ تجارها وبحّارتها يمتدون وينشئون المراكز الجديدة كبجاية وشرشال « بالجزائر » وطنجة وسلا « بالمغرب »

حكومة قرطاجنة ـ كانت الهيئة الحاكمة بقرطاجنة اشبه شيء بجمهورية يدير شئونها مجلس متركب من مائة عضو من اعيان التجار تحت رئاسة شيخين يجدد انتخابهما كل عام .

وكان جل اهتمام هذه الحكومة موجها نحو توسيع نطاق التجارة وانفاذ البضائع وتنمية ثروة القرطاجنيين ليس إلاّ . وبسياستها هذه ارتكبت قرطاجنة هفوتين عظيمتين جدا : اولا ـ استخدامها جنداً ماجورا لا غيرة له في الدفاع عن الوطن . ثانيا ـ ظلمها وسوء معاملتها لمن كان خاضعا لها من البربر وتحميلها اياهم ضرائب مهينة فادحة .

فهذان السببان كانا من أعظم الوسائل لانقراض ملكها حيث كان

---

(١) صور ـ مدينة بالشام كانت من اكبر عواصم المملكة الفنيقية مشهورة بالتجارة والصناعة .

رعاياها ينتهزون الفرص للخروج عن سلطتها ومساعدة اعدائها على مقاومتها .

الحضارة والعمران ـ الفينيقيون على الاطلاق أمة بحرية تجارية ولهذا لم يشتهروا بحضارة شامخة ولا مدنية فنية كبيرة بل كانت عنايتهم كلها منصرفة الى ما ينمي الثروة مثل التجارة والصناعة .

الاّ ما يقال عن اهتمامهم بالفلاحة وغراسة الاشجار وحفر الآبار ، ولا يبعد ان كانوا هم الذين جلبوا الزيتون من الشام . وعنهم انتشرت غراسته بالشمال الافريقي وفي اسبانيا ، وقد ترك احد علمائهم وهو (مَاجُن) تأليفاً كبير الفائدة في علم الزراعة ، ترجمه الرومان فيما بعد الى لغتهم وانتفعوا به كثيراً .

وفي اواسط القرن الثالث قبل الميلاد وصلت مدينة قرطاجنة أقصى درجة في العمران والغنى وقد ساعدها على ذلك موقعها الطبيعي ومرساها المنيع . فكانت تتدفق باصحاب المتاجر المختلفة وارباب الحرف والبحّارة الماهرين . وكانت اسواقها مشحونة بانواع البضائع التي تصنع بها او التي ترد عليها من العالم القديم اجمع اذ كانت قرطاجنة محط رحال الاتجار والاحتكار . ولم يقتصر القرطاجنيون على عاصمتهم هذه بل انهم انشأوا مستودعات معتبرة للمبادلة بسواحل البحر المتوسط في اسبانيا وفي صقلية وغليه [١] . ومن جهة اخرى كانت قوافلهم تخطط الصحراء الكبرى وتقصد

(١) غليه ـ هو اسم فرنسا في القديم نسبة الى (الغولوا) سكانها الاولين .

بلاد السودان لجلب الرقيق والعاج والتبر وغير ذلك من ثمين المواد حتى لقبت قرطاجنة بملكة افريقية .

الديانة — كان القرطاجنيون يعتقدون كبقية الامم القديمة في ارباب متعددة يمثلونها باوثان يقيمون لعبادتها الهيا كل العظيمة ، فمن اشهر الالهة الفنيقية (بعل) وهو كبيرهم و (أشمون) و (تانيت) و (ملك أرت) وكانوا ينذرون لالهتهم النذور ويستخيرونها في المهمات وربما كانوا يتقربون اليها بالضحايا البشرية فيمدّون لذلك احتفالات هائلة في أوقات معينة.

العداوة بين رومة وقرطاجنة

الحروب الفنيقية

ما هي الحروب الفنيقية ؟ — أطلق المؤرخون هذا الاسم على ثلاث حروب كبيرة دارت بين القرطاجيين والرومان دامت ما يزيد على القرن - من سنة ٢٦٤ الى سنة ١٤٦ ق. م - وآلت بسقوط قرطاجنة واستيلاء رومة على افريقية . اما سبب هذه العداوة فهو انتشار نفوذ قرطاجنة في البحر المتوسط وظهور السلطة الرومانية بجنوب ايطاليا .

فالوقائع الحربية الاولى كانت تدور بصقلية حيث التقى الجيشان بمليس سنة ٢٦٠ - ثم بايكنوم - سنة ٢٥٦ - وكان النصر فيها للرومان فتشجعوا

بهذه الانتصارات واصمدوا بجيش الى افريقية ولم يتم لهم الامر حيث وقع قائدهم (روغلوس) وجنده بايدي القرطاجنيين وقتلوا تقتيلا - سنة ٢٥٥ - ثم تجددت الحرب بينهما ثانيا بصقلية وهي مثار النزاع ورغما عما ابداه القائد الشهير (عملقار) من البسالة والمهارة لم يسع قرطاجنة إلاَّ الركون الى الصلح والتسليم في صقلية لعدوها الالد - سنة ٢٤١ ق.م.

ثورة الجند - لم تكد تضع الحرب الفنيقية الاولى أوزارها حتى تهدد قرطاجنة خطر آخر وهو ثوران جندها الماجور لسوء معاملتها اياه فانه تمكن من حصارها وكادت الامور تنفصم لوما تقدم عملقار لكبح جماح الثائرين فالجاهم بعد مصادمات عنيفة الى مضيق عظيم (بخنقة الحجاج) قرب تونس . وهناك حاصرهم وقطع مواصلاتهم حتى هلكوا عن آخرهم جوعا وعطشا وضربا بالسيف وكانوا اربعين الفا او يزيدون •

الحرب الفنيقية الثانية - (من سنة ٢١٨ الى ٢٠١ ق.م.) عقب هذا الانتصار على الثائرين حاول (عملقار) ادخال بعض الاصلاحات في نظام الحكومة القرطاجنية منها تخفيف الوطاة على البربر ، لكن لم تساعده الاسرات المهيمنة وذوو الحيثيات خشية ان تنقلب سمعته الى سلطة فعلية مستبدة وفكروا في ابعاده عن العاصمة فعينوه لفتح اسبانيا •

كانت العادة في قرطاجنة ان تقدم الضحايا للالهة قبل مبارحة الجيش للبلاد ، فقيل ان عملقار بعد تقديم الضحايا للارباب استحلف ابنه (حنّبعل) على ان يكون عدوا ألدا للرومان . ثم توجه لاسبانيا وهنالك الف

جيشا عتيدا أعده لمصارعة رومة . وقضى عملقار نحبه قبل ان يحارب الرومان ثانيا فخلفه في قيادة الجند ابنه حنبعل .

انتصار حنبعل — اعلن « حنبعل » الحرب على الرومان باستيلائه على مدينة (صُغونت) [١] التي كانت خاضعة لهم بدون ان يستشير حكومة قرطاجنة . ثم تقدم فاجتاز جبال (البرينات) [٢] ودخل (غلية) وقد انضم اليه كثير من اهلها وقطع جبال (الالب) [٣] بعد مشاق وصعوبات لاتحصى هلك بسببها قسم عظيم من جيشة وفيلته .

التقى حنبعل بالرومان في عدة وقائع شهيرة أهمها واقعة (كانة) بالجنوب الشرقي من ايطاليا كانت الدائرة فيها على الرومان حيث قتل منهم ما يربو على سبعين الف مقاتل ـ سنة ٢١٦ ـ واستمر النصر حليفا لحنبعل حتى كاد يقضي على رومة بالاستيلاء عليها لولا تناقص رجاله وتقاعس دولته عن امداده بالمال والعساكر . واقام حنبعل في جنوب ايطاليا مدة يمر ويغدو الى ان نزل جيش روماني بافريقية تحت قيادة (شيبيون الاكبر) وأخذ يهدد نفس قرطاجنة فاضطر حينئذ حنبعل لملاحقة عدوه فركب البحر وقدم افريقية وقاتل الرومان الذين انضم اليهم فرسان البربر (بجامة) [٤] وانهزمت عساكر قرطاجنة شر هزيمة ـ سنة ٢٠٢

---

(١) صغونت ـ مدينة بشرق شبه جزيرة اسبانيا

(٢) البرينات ـ سلسلة جبال ممتدة من المحيط الاطلنطي الى البحر المتوسط فاصلة بين اسبانيا وفرنسا

(٣) الالب ـ سلسلة جبال مرتفعة جدا تفصل بين فرنسا وايطاليا

(٤) جامة ـ قرية قرب مدينة الكاف غربي المملكة التونسية ويسميها الرومان (زاما)

وانتهت الحرب الثانية بتنازل قرطاجنة عن كل ما تملكه خارج افريقية ، وبتسليم سفنها وفيَلتها ودفع غرامة حربية تبلغ خمسين مليونا فرنك ذهبا والتزمت ان لا تشهر حرباً على البربر إلاّ بعد الاستئذان من رومة .

اما جنبعل فانه رجع الى قرطاجنة وحاول اصلاح الجند فلم ينجح واضطر الي مفارقة بلاده باقتراح من الرومان ومات مسموماً بمدينة (انطاكية) بالشام - سنة ١٨٣ - وقد يعد هذا القائد من اشهر رجال الحرب واعظمهم بما اظهره من الغيرة الوطنية والمهارة الحربية طول مقاومته لاعداء بلاده حتى كانت هذه الحرب في الحقيقة مصارعة بين « حنبعل » والامة الرومانية التي كانت اذ ذاك أقوى الممالك وأقدرها . مع ان الحكومة القرطاجنية كانت معرضة عنه .

مشاهير التونسيين

حنّبعل

ولد حنبعل بقرطاجنة - سنة ٢٤٧ - قبل الميلاد ، وانخرط منذ نعومة اظفاره في الجند تحت راية ابيه عملقار ورافقه في المعارك والغزوات فاكتسب منه صفاته الحربية اي البسالة والاقدام والتجلد حتى ترشح لرئاسة جيش قرطاجنة وهو لم يتجاوز سن السادسة والعشرين فاظهر من الحماس والغيرة والوفاء بوعده من مقاومة الرومان ما استوجب له وقار اعدائه واعتبار اصدقائه . وقد فاز حنبعل بخصلتين عظيمتين لم تجمعا في فؤاد غيره وهما : الطاعة والامرة .

فكان مع اقدامه المعجب ومكابدته الاخطار محافظا على الثبات والتجلد بحيث لا يشق عليه عمل او يثني عزمه خوف ولا يعييه حر ولا قر ، بل هما لديه سيان ، ولا ياكل من الطعام إلا بعض ما يسد الرمق ولا يتقيد في نومه بليل او بنهار فهو ينام ويستيقظ حسب الضرورة ، على انه لم يعرف قط فرشا لينا للاضطجاع ، فكم مرة انطرح بدروعه الحربية بين صفوف مقدمة جيشه ولم يكن له لباس فاخر يميزه على بقية جنده بل جل عنايته كان بفرسه وسلاحه .

اما في ساحة القتال فكان حنبعل اشجع رجاله واقواهم على مداومة الكفاح فانه اول من يتقدم للطعن وآخر من يبقى بميدان الرغى .

فبهذه الصفات العالية والخصال الحميدة استولى حنبعل على قلوب الجيوش التي استبذل بها اعداء وطنه زمنا طويلا وعُدَّ أكبر قائد في العصور القديمة .

الحرب الفنيقية الثالثة ـ (من ١٤٩ الى ١٤٦ ق.م.) على أثر وقعة (جـامة) الشنعاء انتهز البربر فرصة ضعف قرطـاجنة لاظهار ما تكنه صدورهم من البغضاء لهذه الحكومة التي لم تحسن معاملة رعاياها حتى سئموا من استيلائها عليهم فاخذوا يهددون سلطتها ويشنون عليها الغارات المتوالية . وكان في مقدمة هؤلاء البربر زعماء أشدهم باساً (ماسنيسا) أمير (نوميديا) [1] . ولم يفد قرطاجنة شكاويها العديدة للجمهورية الرومانية حامية البربـر بل كانت تساعدهم خفية على ايقـاع الثورة واحداث الهرج ضد عدوتها . وبالاخرة أرسلت رومة احد ساستها وهو (قاطون) للبحث عن احوال افريقية فلمـا رجع أخذ يعدد للمجلس الروماني ثروة قرطاجنة

(١) نوميديا ـ اسم اطلقه الرومان على جميع القسم الشرقي من بلاد الجزائر الان والغربي من المملكة التونسية ـ واسم (ماسنيسا) هو تحريف من الرومان لاسم (ماكسن) البربري .

واستعدادها الحربي وختم خطابه بالكلمة التي ذهبت مثلا «لابدّ من تخريب قرطاجنة» (٢) .

تخريب قرطاجنة ـ وبالفعل اشهرت رومة الحرب على قرطاجنة ـ سنة ١٤٩ ـ ووجهت جيشا جرارا برئاسة (شيبيون الاصغر) المعروف بالافريقي فركن القرطاجنيون اولا الى الصلح وقبلوا جميع الشروط مع كونها قاسية عليهم فسلموا أسلحتهم وسفائن أسطولهم ، لكن لما رأوا عزم الرومان على اتلافهم تحزبوا لتدارك ما فات ، فحصنوا مدينتهم من جديد وبذلوا كل غال ونفيس في الدفاع عنها حتى قيل ان النساء قطعن شعورهن وجعلنها حبالا للمراكب ومراسن للسفن . وتقدم الرومان وحاصروا قرطاجنة وقطعوا مواصلاتها من كل الجهات ولم يغن عنها جيشها الملتف حول قائدها (صدر بعل) واستمر هذا الحصار نحو السنة قاسى فيها القرطاجنيون آلام الجوع والوباء بانواعها حتى اذا كانت سنة ١٤٦ ق.م. حمل الرومان على المدينة وأخذوها عنوة بعد قتال ذريع هلك فيه سكانها ثم خربوا معالمها ودمروا ساحتها تدميرا وتركوها أثراً بعد عين .

اسباب السقوط ـ فسقطت دوله قرطاجنة بعد ان دامت أكثر من ستمائة عام . وسبب ذلك كما بيناه هو سوء معاملتها للعنصر الاهلي وانقسام رجال حكومتها الى احزاب متنافرة مع عدم اتخاذها جيشا وطنيا يذب عن حوزة البلاد بغيرة وحمية .

---

(٢) من ذلك الحين صارت هذه الجملة مثلا عند الرومان . وعبارتها باللغة اللاطينية « Delenda Carthago !

١ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في الدور القرطاجني

(من سنة ٩٠٠ الى سنة ١٤٦ قبل الميلاد)

اسماء القواد المشاهير	تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
الاميرة عليسة الفنيقية	٨٨٠	تاسيس مدينة قرطاجنة ـ انتشار القرطاجنيين في البحر المتوسط .
القائد عملقار القرطاجني	من ٢٦٤ ـ ٢٤١	الحرب الفنيقية الاولى ـ انهزام الجيش الروماني بافريقية ـ نكبة القرطاجنيين بصقلية ـ ثورة جند قرطاجنة .
القائد حنبعل	من ٢١٨ ـ ٢٠٢	الحرب الفنيقية الثانية ـ انتصار حنبعل بايطاليا ـ واقعة كانة : سنة ٢١٦ ـ انهزام القرطاجنيين بجامة : سنة ٢٠٢ ـ التجاء حنبعل الى الشام وموته بانطاكيه .
القائد صدر بعل	من ١٤٩ ـ ١٤٦	الحرب الفنيقية الثالثة ـ هياج امرآء البربر ـ حملة رومة على قرطاجنة ـ تفاني القرطاجنيين في الدفاع عن عاصمتهم ـ تخريب الرومان لمدينة قرطاجنة .

الدور الثاني

الاستيلاء الروماني

(من سنة ١٤٦ ق.م . الى سنة ٤٣٠ م.)

اعادة بناء قرطاجنة ـ أسس الرومان على اطلال قرطاجنة الفنيقية مدينة عظيمة عرفت باسمها الاول وصارت قاعدة المستعمرة الجديدة •

وقد قسم الرومان هذه المستعمرة الى قسمين كبيرين : الاول هي (افريكا) وتشتمل على الناحية الشمالية من المملكة التونسية الان . ثم (نوميديا) وهي الجهات الوسطى والجنوبية من القطر التونسي وعمالة قسنطينة . فالقسم الاول (افريكا) كان تحت السلطة الرومانية مباشرة . والولاية الثانية (نوميديا) وزعتها بين امرآء من البربر وضعتهم تحت حمايتها •

يوغُرْطَة البربري ـ واشهر هؤلاء الامراء زعيم يسمى (يوغُرْطَة) فانه بعد ان تغلب على الرؤساء اجواره شق عصا الطاعة في وجه الرومان وحارب جيوشهم وانتصر عليهم ، ثم عادت الكرة فالتجأ يوغرطة اخيراً الى بعض أقاربه بالمغرب فخشي هذا من بطش الرومان وسلم الزعيم الى جمهورية رومة فسجنته الى ان مات جوعا سنة ١٠٦ ق.م. وكان (يوغرطة) شجاعا عاقلا صرف سعيه مدة استيلائه في انهاض قومه من

طريق العمل بترقية الفلاحة وتعمير بلاده الممتدة من بجاية الى قابس ٠

الحاق بقية افريكا ـ وبموت هذا الامير ألحق الرومان بقية المملكة التونسية الى مستعمرتهم (افريكا) وتركوا نوميديا بايدي رؤساء من البربر خاضعين جميعا لحمايتهم ٠

واعقب ذلك قلاقل بافريكا وفتن نشأت بسبب الانقلابات السياسية الحادثة يلاد الرومان حيث سقطت الجمهورية وانتصبت دولة القياصرة مكانها (سنة ٣١ ق.م.) ولم تعد الراحة الى قرارها إلاّ باستيلاء القيصر (أغُسْطس) الذي اجتهد في اصلاح حالة افريقية وادخل اليها عددا وافرا من المعمرين الرومانيين . ومن اصالة رأي هذا القيصران عيّن لولاية (نوميديا) أميرا أهليا يدعى (يوبا الثاني) ٠

يوبا الثاني ـ هذا الامير من ابنآء البربر الاهلين تلقى في صغره العلوم بمدينة رومة وزاولها حتى صار عالما بآداب الرومان وتخلق باخلاقهم. وكان (يوبا) عاقلا بصيرا بشئون الامارة . والف كتبا حسنة في مواضيع مختلفة منها كتاب في تاريخ الرومان وجغرافية افريقية وجزيرة العرب . وكتاب في فن التشخيص والموسيقى وغير ذلك من الفنون المستظرفة الشائعة عند اليونان والرومان . وتوفى يوبا الثاني سنة ٢٢ بعد الميلاد . وضريحه يعرف اليوم بقبر الرومية قرب شرشال بعمالة قسنطينة ٠

نظام الحماية الرومانية ـ عين الرومان حاكما على افريقية بصفة مقيم عام يدعى « بروقنصل » مقره قرطاجنة . ولهذا الوالي النظر الاعلى

في شئون ادارة البلاد وجندها . وكان الجيش (بأفريكا) لا يتجاوز الثلاثين الفا من العساكر منهم ستة آلاف من الرومان والبقية من البربر وغيرهم موزعين على مراكز حربية منتظمة .

اما الادارة المدنية للبلاد فكانت بايدي عُمّال ومشائخ من الاهالي تحت مراقبة مامورين من الرومان يرجع نظرهم الى المقيم العلم . وكان بكل مدينة عظيمة مجلس بلدي يدير شئونها ، يُنتخب اعضاؤه من اعيان الرومان وأغنياء التجار الاجانب .

فما أشبه حكومة الرومان في افريكا اذ ذاك بحكومة الحماية الفرنساوية في المملكة التونسية . والتاريخ يعيد نفسه .

الاستعمار الروماني ـ قدمنا ان القيصر (أغُسْطُس) كان أول من سعى في توطيد الاستعمار الروماني فانه ارسل الى افريقية ثلاثة آلاف من قدماء العساكر الرومانية أقطعهم أراضي غالبها مغتصب من الاهالي بقصد استعمارها واستثمارها . ومن ذلك العهد اخذ مهاجرو الرومان يتوافدون على البلاد ثباتاً ووحداناً حتى عمرت بهم . وكان المحرض لهم في الحقيقة على الاستيطان هو اعتناء الحكومة بشأنهم ومدهم بالمساعدات الكبيرة لهم مثل اقطاعهم الاراضي الشاسعة وجلب المياه اليها من العيون البعيدة . وكان جل هؤلاء المستعمرين يستثمرون أطيانهم بايدي الارقاء والاهالي مقابل منحهم ما يستخرجونه من نتائجها . وربما منح الرومان قسما من الاراضي للبربر على خراج يؤدونه للحكومة .

وبالحقيقة ان الرومان اعتنوا كثيراً في القرنين الاولين بعد الميلاد بتحسين وسائل الفلاحة فانهم انشأوا القنوات واقاموا عدة حنايات أهمها (حنايا قرطاجنة) (١) كما انهم اهتموا بالري فحفروا الابار العميقة وادّخروا مياه المطر والسيول في المواجل والصهاريج للانتفاع بها في الصيف الى غير ذلك من الاشغال الهامة المفيدة لبلاد فلاحية بحتة •

الطرقات ـ وضرورة ان عمارات فلاحية معتبرة ومدن آهلة متجاورة كانت في حاجة الى مواصلات كبيرة لتسهيل نقل ما تنتجه من المواد الزراعية والتجارية . ولذا احدثت حماية الرومان طرقات عمومية خطّطت الولاية طولاً وعرضاً . منها جادة فسيحة كانت تخرج من قرطاجنة وتصل الى تبسة . واخرى من بونة (عنّابة) وتنتهي الى طرابلس الغرب بعد ان تمر على غالب الساحل التونسي . وما زالت لهذه الطرقات أثار تشاهد بداخل المملكة الى الان •

العمران الروماني ـ وعلاوة على اعتناء الرومان بوسائل الزراعة والري والمواصلات فقد انشأوا عددا وافراً من المدن الكبيرة اقاموا فيها من المعالم الجليلة والهياكل الجميلة ما يندهش كل واقف على آثارها المنتشرة بانحاء القطر من الشمال الى حدود الصحراء . كيف لا وقد بلغ عدد سكان افريقية فيما يروى الى اربعة ملايين من النفوس . ووصل العمران بمدينة قرطاجنة التي خربت كما مر ان احتوت على خمسمائة الف نسمة . اما المدن

---

(١) وهي المسماة عندنا اليوم (حناية أفرش) قرب منوبة وكانت تمتد على مسافة تسعين كيلوميتر حيث تاتي بمياه عين زغوان الى قرطاجنة •

الثانوية مثل (أُوذنه) [١] و (دُوقّة) [٢] و (أُلجم) [٣] و (مكثر) وغيرها فكان عدد سكانها يتراوح بين الثلاثين والاربعين الف نسمة . وقد شيّد الرومان بكل مدينة من هذه مراسح وملاعب لتمثيل الروايات واخرى لمصارعة الحيوان « أنفيتياطر » ومعابد نصبت بها تماثيل آلهتهم وقصور وحمامات عمومية وهلم جرا من المعالم الشامخة الدالة على عمران راسخ وتمدن باهر .

تشبه البربر بالرومان ـ ولما تمكن الرومان من امتلاك البلاد وادخال وسائل العمران فيها سارع كثير من السكان البربر للتمسك بعوايد الغالب وتقليده في ديانته واخلاقه وتعلم لغته . فاندمجوا رويداً رويداً في العنصر المتغلب وصاروا كالقطعة منه ، وقد وصل بعضهم الى اسنى المراتب وتقلّب في أعلى الوظائف الدولية فان أحدهم وهو (سبتيم سيفاروس) [٤] اعتلى على عرش السلطنة الرومانية بانتخاب الجند .

---

(١) اوذنة ـ قرية على مساحة ٢٦ كيلوميتر من تونس على طريق تونس الى سوسة.

(٢) دقه ـ قرية قرب تبرسق على الطريق المارة من تونس الى الكاف ، ولكن الرومان يسميها (توقه).

(٣) ألجم واسمها الروماني (توسدروس) مدينة صغيرة بعمل المهدية واقعة بنصف الطريق بين سوسة وصفاقس ، أشهر ما بها ملعب لمبارزة الحيوان قيل امر ببنائه القيصر (هدريان) عند زيارته لافريقية سنة ١٢٥ وطول هذا الملعب ١٥٠ ميتر وعرضه ١٢٥ وارتفاعه ٣٦ ميتر ، وهو من اكبر المراسح الرومانية الموجودة في العالم ، وما زال هذا البناء المشمخر قائم الذات يقصده السواح من جميع الافاق .

(٤) ولد هذا القيصر البربري الاصل بمدينة لمطة على الساحل الافريقي وتولى الامبراطورية الرومانية سنة ١٩٣ ومات محاربا بانكلترا سنة ٢١١ فخلفه ابنه ، وكان عالما بعدة فنون وقد اجتهد كثيرا في مدته برفع شان بلادة افريقية .

إلاّ ان الرومان غفلوا مدة انتصابهم عن أمر مهم جداً وهو اخضاع بعض القبائل البربرية التي انحازت الى الجبال المنيعة وحافظت على شمائرها القومية ولغتها وعوائدها . فلم يكن للمتغلب تأثير عليها ، ومن هذه القبائل انبعث الثورات العديدة في وجه الرومان فكانت احدى العوامل العظمى في سقوط سلطتهم اذ بتعاقب الايام وظهور الضعف في الدولة الحامية تسنى للعنصر البربري مقاومتها ونكث عهدها كلما سنحت لهم الفرص [1] بذلك .

انتشار الديانة المسيحية ـ ظهرت الديانة المسيحية بمملكة الرومان في اول عهد القياصرة [2] وكان الرومان ـ كبقية الامم القديمة ـ يعبدون عدة آلهة وارباب يمثلونها باصنام في صور الادميين ويشيّدون لها الهياكل العظيمة والمعابد المزخرفة . فلما جاءت النصرانية وانتشرت بسرعة بين طبقات الامة خصوصا السفلى منها لاحتوائها على مبادي المساواة والعدالة ، تخوّف رجال الحكومة الرومانية من تأثيرها في النفوس واعتبروها خطراً على سلطانهم فقاوموها بكل شدة وصرامة وضايقوا على الداخلين فيها وشددوا عليهم العقاب حتى كانوا يصلبونهم ويلقونهم الى الحيوانات الضارية .

---

(١) ونظير هذا في تاريخ الاسلام تلك الزلة السياسية التي ارتكبها الفاتحون للاندلس حيث تهاونوا بامر الاسبان الملتجيين زمن الفتح الى اعلى جبال أشتورية ! واسس الافرنج هنالك ملكا حصينا انحدروا منه الى السهول التي بايدي المسلمين فافتكوها شيئا فشيئا الى ان زحزحوهم من مكانهم وفي الاخر اطردوهم من عموم الجزيرة . وبذلك زال ملك المسلمين من الاندلس « سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا »

(٢) ولد عيسى عليه السلام ببيت المقدس على عهد القيصر (أغسطس) ، وقد اتخذ الافرنج سنة ولادته مبتدا لتقييد التاريخ ، فيقال قبل الميلاد بكذا او بعده .

ولم يزد هذا الضغط إلاّ قوة تمسك من المسيحين وشدة اضطهاد من القياصرة ، ونشأت عن ذلك فتن داخلية وقلاقل متتابعة بانحاء المملكة والمستعمرات ، ولم تتأيد الديانة المسيحية إلاّ في سنة ٣٣٠ بعد الميلاد بمساعي الامبراطور (قسطنطين الاكبر) .

اضطراب الاحوال — غير ان المسيحيين انفسهم كانوا منقسمين الى فِرَق ومذاهب متنافرة متباغضة ، فتسبب عن تنازعهم اضطراب تكدّر به صفو المملكة الرومانية . وكان لهذا الاضطراب رنة شديدة بافريقية لان كثيرين من البربر اعتنقوا الديانة الجديدة بدعوة من الرهبان المبشرين ، ثم ارتدوا وعادوا ثانية وتكرّر منهم ذلك مراراً . ويلوح ان تنصّر البربر كان عن قصد لانهم رأوا في ذلك وسيلة للتخلّص من سلطة الرومان ، وبالفعل فانهم ساعدوا بجهودهم تلك الخلافات المذهبية التي آلت في النهاية الى ارتباك امور افريقية وانقلبت المسألة من دينية الى سياسية حيث انتهز البربر الفرصة لطلب استقلالهم .

سقوط السلطة الرومانية — كانت نتيجة هذه القلاقل اختلال امور الرومان بمستعمراتهم وضعف نفوذ حكامهم حتى ان أحد ولاتهم على افريقية وهو الكونت (بونيفاس) أنف من البقاء على الطاعة لوحشة جرت بينه وبين بعض رجال رومة فشق عصا الطاعة في وجه الحكومة سنة ٤٢٧ واستنجد (بالوندال) المتغلبين اذ ذاك على اسبانيا ، فكان قدومهم الضربة القاضية على ملك الرومان بافريقية .

٢ ــ جدول ملخص الحوادث الواقعة في الدور الروماني

(من سنة ١٤٦ قبل الميلاد الى سنة ٤٣٩ بعده)

تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
١٤٦ ق٠ م٠	انتصاب الرومان بافريقية الشمالية ـ اعادة بناء قرطاجنة
١٢٠ الى ١٠٦	ثورة يوغورطة البربري على الحكومة الرومانية وموته سجينا برومة
سنة ٢٢ بعد الميلاد	استيلاء الامير يوبا الثاني البربري على ولاية نوميديا ـ انتشار العمران بافريقية ـ تشبه البربر بالرومان
سنة ١٠٠	ظهور الديانة المسيحية بافريقيا ـ اعتناق البربر للنصرانية ـ تمسك البربر بالمذاهب الخلافية
١٢٥	زيارة القيصر الروماني « هدريان » لافريقية ـ انشاء معالم جليلة
من ١٩٣ الى ٢١١	اعتلاء سبتيم سيفاروس البربري على تخت القياصرة
من ٤٢٠ الى ٤٣٩	اضطراب احوال الرومان ـ استقلال الوالي (بونيفاس) بامر افريقية ـ استنجاده بالوندال ـ سقوط السلطة الرومانية

استيلاء الوندال

(من سنة ٤٣٩ الى سنة ٥٣٤ م.)

الونـدال ـ أو الفنداال أمـة جرمانية الاصل زحفت في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح على اسبانيا واستقرت بها وانشأت لها هنالك ملكا وطيداً (١) .

فحينما استنجد الكونت (بونيفاس) بالوندال اجتاز مَلِكُهم (جنسريق) من اسبانيـا الى المغرب الاقصى في جيش كثيف من قـومه وثب به على افريقية وحاصر مدنهـا الشهيرة الواحدة بعد الاخرى الى ان دخلت تحت طاعته جميعا . وكان امتلاكه لقرطاجنة قاعدة البلاد ـ سنة ٤٣٩ م. ـ وقد ندم بونيفاس على خيـانته حين لا ينفع الندم ولم يسعه إلاّ الفرار أمام الوندال المهاجمين ، وبذلك تـمّ الامر لجنسريق ولعقبه من بعده حيث أسسوا بافريقية مملكة مستقلة دامت نحو المائة عام .

فتوحات الوندال ـ ولم يقف الوندال على حد افريقية بل جهزوا جنودا جرارة غالبها من البربر وانشئوا بقرطاجنة اسطولاً ضخماً.هاجموا به جزائر البحر المتوسط وسواحله ، فاستولوا على معظمها . ثم التفتوا الى

---

(١) وقد سميت من حينئذ هذه المملكة (اندلوسيا) نسبة الى الوندال وهي جزيرة الاندلس التي امتلكها المسلمون مدة ثمانية قرون .

رومة فدخلوها عنوة سنة ٤٥٥ م. واطلقوا ايدي جيوشهم في ذخائرها النفيسة ، ودام النهب نحو نصف شهر . ورجع (جنسريق) عقب ذلك غانما مكللا بالنصر ، ومات سنة ٤٧٧ م. بقرطاجنة فتداول المملكة ابناؤه من بعده كما سنوضحه .

سلوك الوندال مع البربر — سلك الملك جنسريق مع البربر سياسة اللطف والمجاملة فاستمال قلوب الاهالي وحشد منهم جانباً عظيما في عساكره فكانوا أكبر مساعد له على الفتك بالرومان والنزول ببلادهم .

وقد عبث الوندال في مدتهم بالنظامات الرومانية الباقية بافريقية وبذلك قضوا على استعمار الرومان .

واقتفى (هنريق) ابن جنسريق أثر والده في هذا السلوك فقد قبض على خمسة آلاف من رهبان الكاثوليك وشردهم في الصحراء بعد ان اغتصب اموالهم وكنائسهم سنة ٤٨٣ م. ، وكانت أمة الوندال متمسّكة بمذهب مسيحي مغاير لمذهب الكاثوليك الذي تتبعه كنيسة رومة .

وبالجملة فان ملوك الوندال اجتهدوا من جهة في محو الاستعمار الروماني بهذه الديار ، ومكافحة رجال الدين الكاثوليكي ، ومن اخرى استمالوا البربر اليهم برفع المظالم والاستبداد عنهم بما أحي في هؤلاء الشعور الذاتي والمطامح القومية .

انحطاط الوندال — أشاد الوندال ملكهم على افريقية وغيرها من الممالك بقوة جيوشهم وبسالة رجالهم اذ بهم دوّخ (جنسريق) وابنه

« هنريق » نواحي البحر المتوسط واخضعوا الامم التي كانت في قبضة الرومان من قبل ، وقد حاولوا في مدتهم ايجاد نظام عقاري يسمح للاهلين بامتلاك الاراضي الشاسعة التي اغتصبها الرومان من اربابها البربر .

لكن خلفآء هذين الملكين فرّطوا في التحفظ على الجيش وتشاغلوا عنه بركونهم الى الملاهي والطرب وميلهم الى الشهوات والملاذ فاصابهم من الانحطاط ما اصاب ولاة الرومان في آخر دولتهم ، وتسبب عن هذا التقاعس : تطاول البربر على سلطة الوندال واعلانهم الاستقلال في الجهات الجنوبية من افريقية ولم يبق بايدي الوندال سوى شمال المملكة .

سقوط الوندال بافريقية ـ ومما زاد في هذا الانحطاط تنازع امرآء الوندال على الاستيلاء ، فان (هلدريق) تولى على افريقية سنة ٥٢٣م ، وكان ضعيف العقل منحل العزيمة ، فلم يلبث غير يسير حتى انزله الوندال عن عرش المملكة وانتخبوا مكانه قريبه (جليمار) فتاتى للملك المخلوع ان يستنجد بقيصر القسطنطينية (يوستنيان) لاسترجاع ملكه . وكان يوستنيان هذا يضمر في نفسه إبادة سلطة الوندال من افريقية وارجاعها لحكم الروم ، فاغتنم هذه الفرصة الثمينة وأعلن الحرب على جليمار فكانت العاقبة انهزام الوندال واستيلاء الروم على هذه الديار .

الدّورُ الثّالثُ

الـروم

لما انقسمت المملكة الرومانية ـ سنة ٣٩٥ م. ـ تأسست بجنوب الجهة الشرقية من أرُوبَا سلطنة عظمى قاعدتها القسطنطينية او (بيزنطة) ، وقد أطلق العرب على سكان هذه المملكة لفظ « الروم » ويسميهم الافرنج بيزنطيين نسبة الى تخت ملكهم .

الاستيلاء البيزنطي على افريقية

(من سنة ٥٣٤ الى سنة ٦٤٢ م.)

أسلفنا أن قيصر الروم أشهر الحرب على (جليمار) آخر ملوك الوندال ، وكانت الجنود التي سيّرها (يوستنيان) الى افريقية تتألف من عشرين الف مقاتل تحملهم خمسمائة سفينة حربية تحت إمارة القائد المشهور (بليشار) . فبعد عدة وقائع تشتت شمل الحامية الوندالية وتمكن القائد البيزنطي من الاستيلاء على افريقية والحاقها بسلطنة الروم ـ سنة ٥٣٤ م. ـ مع ابقاء قرطاجنة عاصمةً للولاية .

ولم تكد الحكومة البيزنطية تنصب سلطانها على البلاد حتى نهض في وجهها زعماء من البربر أحدثوا هياجاً مكدراً أخمده بعد عناء طويل الوالي « يوحنا تروغليطا » المعيّن من طرف القيصر سنة ٥٤٦ م.

الحكومة البيزنطية ـ رتّب الروم ولاية افريقية على نظام يغاير شيئا ما الطريقة الرومانية السابق تعريفها ، وذلك ان الحكومة القيصرية أناطت نظر افريقية الاعلى بحاكم عام وظيفته اصدار الاوامر ومباشرة الادارة المالية ومراقبة الموظفين . ومقام هذا الحاكم بمدينة قرطاجنة حيث انتصبت المصالح الحكومية التي تشتمل على زهاء الاربعمائة مأمور مدني وعسكري .

اما القطر فكان منقسما الى ثلاثة اعمال مدنية يدير كل واحد منها عامل يدعى « قنصل » يعضده كتبة وموظفون كثيرون .

نظام الجيش ـ بذل الروم مجهودهم في تنظيم الحامية العسكرية فوزّعوا جيشهم المتألف من مشاة وخيّالة على نقط حربية وأضافوا اليه فريقاً من الجنود الاهلية ، وجعلوا المركز الاصلي لقائدهم العام بمدينة (قفصة) (١) لقرب موقعها من التخوم الصحراوية ، وكانت الجنود البيزنطية على أتم استعداد من جهة السلاح والعدة إلا انها كانت ثقيلة الحركة ، قليلة الانقياد لرؤسائها ، بخلاف فرسان البربر المتصفين بالجلد وسرعة الانتقال لخفة أحمالهم وسرعة خيولهم .

الحصون ـ وزيادة على اهتمامها بالجيش ، اعتنت الحكومة البيزنطية بتحصين البلاد ، فأنشأت قلاعاً محكمة البناء وشيدت معاقل كثيرة ممتدة على الساحل وعلى التخوم كانت حصناً منيعاً لصد غارات القبائل البربرية المنحازة في الجبال . ومازالت لهذه القلاع آثار تشاهد بتبرسق وباجة وحيدرة (٢)

---

(١) مدينة قفصة ـ كائنة بالجنوب الغربي من المملكة التونسية وهي قديمة البناء كانت تسمى عند الرومان (كبصة) خرّبتها الفتن مرارا وهي الان مركز عمل.

(٢) حيدرة ـ قرية كبيرة بعمل الفراشيش قرب تالة .

وغيرها من المدن التونسية .

سياسة الروم مع البربر — مهما تسنى لهذه الامة من اتخاذ وسائل الدفاع واقامة الحصون المنيعة فانها لم تحسن السلوك مع الاهالي ولم تدر استمالتهم اليها بالعدل والرفق مثل ما جرت عليه سياسة الرومان بهذه الديار خصوصا في اول عهدهم . بل أثار الروم غضب الرعية بتوظيفهم الضرائب الفادحة على كاهل البربر ، وارتكاب موظفيهم القساوة والجور في فرض الجبايات والاتاوات الغير المشروعة .

وفوق ذلك كله تفشي الارتشاء بين ولاة الامور على اختلاف طبقاتهم لشدة حاجة رجال القسطنطينية الى المال ، وتمكن داء الترف والبذخ من الحكّام والعُمال وسائر الموظفين .

الاثار البيزنطية — اكتشف الباحثون منذ خمسين عاما في المملكة عن آثار بيزنطية معتبرة أهمها من حيث المعالم : بقايا كنيسة بمكان يعرف (بداموس الكريطة) بقرطاجنة ، وانقاض كنيسة أخرى بمدينة الكاف ، وعدة منازل لبعض الاغنياء ، وقد تمتاز البناآت البيزنطية - لا سيما المساكن الخاصة منها - بترصيع قاعاتها بالفسيفساء (١) الملونة ذات المناظر العجيبة والصور المختلفة (٢) . على ان الروم استخدموا في الحقيقة كثيراً من مواد البناآت الرومانية وانتفعوا بانقاضها لاقامة معاهدهم ، ونظراً لعجزهم

---

(١) الفسيفساء — وهي ما نسميه الزليج الظفري وهي قطع صغيرة من الرخام الملون وغيره يؤلف بعضها الى بعض على اشكال متنوعة .

(٢) يوجد بين المساكن البيزنطية ومنازلنا الان مشابهة قوية وذلك لان العرب ورثوا كثيرا من العادات والعلوم واشكال البناء عن الروم كما هو مبسوط في التاريخ الاسلامي

عن اعادة المعالم الرومانية الى نصابها الاول وترميم مـا انثلم منها بمرور الزمان وتخريب الفتن والحروب فانهم اقتصروا على الاستفادة من الحصون القديمة بتضييق دائرتها وتهديم الباقي (والله وارث الارض ومن عليها).

انحطاط سلطة الروم ـ تقدم لنا الكلام على المسلك العقيم الذي سار عليه الروم بـالولايات ، بقي ان نذكر ان الولاة الذين كانت حكومة القسطنطينية ترسلهم الى افريقية كانوا في غالب الاحيان أقارب القيصر أو من حاشيته . فياتون الولاية بقصد اكتساب الاموال باسهل الطرق واسرعها ـ وابتزازها عند الضرورة ـ والرجوع الى بيزنطـة في اقرب مدة ، للتظاهر بالابهة والتمتع باللّذات والشهوات ، ومن الضروري ان ذلك كان يصدّهم عن الاهتمام بشؤون البلاد والنظر فيما يعود عليها بالنفع ، فكان هذا السلوك مما يجبر الحكام على الاستخفاف بحقوق الرعية واعتبارهم عبـاداً سخّرهم لهم سلطانهم ليسترقوهم ويبتزوا اموالهم ، مما آل في النهاية الى اختلال سياستهم واضطراب سلطانهم .

ونشأ عن هـذه السياسة الخرقاء نفـور البربر من سيطرة الروم وتحزب الرعية ضد الحكومة وتلاشي النفوذ اللازم للقبض على ناصية البلاد، فكان الولاة انفسهم يسعون للتخلص من ربقـة الاستبداد والظلم باعلانهم الاستقلال في الجهات البعيدة .

وهـكـذا كانت حالة الحكومـة البيزنطية عند ما أيقظها من غفلتها وزعزعها من سُباتها سلطان (الاسلام) حسبما نبينه فيما يـلي .

٣ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الوندال والروم

(من سنة ٤٣٩ الى سنة ٦٤٧ من الميلاد)

اسماء الامراء والولاة	تاريخ الوقائع	أهم الحوادث
جنسريق ملك الوندال	من ٤٣٩ ـ ٤٧٧	استيلاء الوندال على افريقية وإنتصابهم بقرطاجنة ـ هجوم الوندال على رومة
ابنه هنريق	٤٨٣	نزول الوندال بجزر البحر المتوسط ـ محو آثار الاستعمار الروماني
هلدريق وجيلمار	من ٥٢٣ الى ٥٣٤	تنازل ملوك الوندال ـ تراجع امر الوندال ـ تداخل الروم البيزنطيين في شؤون افريقية
بليشار القائد البيزنطي	٥٣٠	قدوم الجيوش البيزنطية واستيلاؤها على افريقية
الوالي يوحنا تروغليطا	٥٤٦	تنظيم الولاية البيزنطية بافريقية ـ انشاء المعالم والكنائس
البطريق غريغوريوس	٦٤٦	استقلال ولاة الروم باعمال افريقية

الدور الرابع

الاسـلام

جزيرة العرب ـ بلاد العرب شبه جزيرة كائنة في الجنوب الغربي من قـارة آسيا يحدها شمالا الشام وشرقاً العراق وخليج فارس ، وجنوباً بحر الهند ، وغربـاً البحر الاحمر . يبلغ عدد سكانها الى اثنى عشر مليونا تقريبا ، وهي ثلاثة اقسام كبرى : نَجْد ، الحجاز ، اليمن .

فمن اشهر المدن بالحجاز : مكة المكرمة ، والمدينة المنورة وكانت تسمى قديما (يثرب) والطائف ، وجُدّة .

وباليمن : صنعا ، وعدن ، ومُخَا . وبنجد : الرياض والحائل وعنيزة .

وجزيرة العرب متسعة البوادي قليلة المياه إلاّ ما كان منها على ساحل البحر فـانه خصب عامر ، وفي السنين الاخيرة ظهر في النـاحية الشمالية الشرقية منها منابع غزيرة لزيت النفط (البترول) فجلب ثـروة جديـدة طائلة للحكومات العربية وللسكّان .

العرب قبل البعثة ـ العرب امـة سامية [١] الاصل واللغـة . استوطنت الجزيرة في العصور الغابرة فتفرعت عنها القبائل والبطون . والعرب ثلاث طبقات : بائدة ، وعاربة ، ومستعربة .

---

(١) نسبة الى سام بن نوح ويشارك العرب في هذا الانتساب امم كثيرة منهم الكلدان والعبرانيون والسريان والفنيقيون والحبش وغيرهم .

(فالبائدة) او الهالكة انقرضت وكانت شعوبا عديدة منهم عـاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس •

و (العاربة) او القحطانية هم سكان اليمن وما جاورها من ولـد يعرب بن قحطان . وكانت لهم حضارة شامخة ودول قديمة عاصرت فراعنة مصر وملوك بابل ومن اشهرهم دولة حمير أو التبابعة •

واما (المستعربة) او الاسماعيلية فهم سكان الحجاز ونَجْد من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، ويسمون ايضا (عدنانية) نسبة الى عدنان بن أد احد أجدادهم •

ولقد مضى على العرب المستعربة في جاهليتهم قرون متطاولة وهم على ما جُبِلوا عليه من البداوة الفطرية والخشونة وتباغض القبائل ، لاقانون يديرهم ولا نظام يسيرون عليه ولا وازع يردعهم ، دأبهم عبـادة الاوثان وتقديس الاصنام وشنّ الغارات بعضهم على بعض •

فظهـور دين يجمع كلمتهم ويصدّهم عن التوحش وارتـكاب المنكرات ويدعوهم الى الاخاء والحرية كان من أشد حاجات العرب بل كان امراً ضروريـا لعموم البشر لان الامم الاخرى لم تكن حينئذ أرقى بكثير من سكان الجزيرة العربية من جهة فساد الاخلاق وظلم الضعيف •

لذلك قضت حـكمة الباري جل جلاله بظهور (الاسلام) •

صاحب الشريعة السمحاء — ولد النبيء صلى الله عليه وسلم بمـكة فجر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الاول عـام الفيل [١] الموافق

---

(١) هو العام الذي قدم فيه ملك الحبشة في جيوشه لهدم الكعبة فخاب ورجع من غير طائل .

لعشرين ابريل سنة ٥٧٠ من ميلاد عيسى عليه السلام . وهو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي وينتهي نسبه الشريف الى عدنان ، ومنه الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف . تيتّم صلى الله عليه وسلم صغيراً فكفله جده عبد المطلب ،ثم عمه أبو طالب وكان من وجهآء قريش فتربّى في بيته كاحد ابنائه .

وفي الثالثة عشر من عمره صاحب عمه أبا طالب الى الشام ثم عاد ، وسافر بعدها بتجارة لاحدى النساء الفاضلات من قريش وهي خديجة بنت خويلد ، فلما رجع عرضت عليه خديجة الزواج لما علمت من مكارم اخلاقه ، فاقترن بها وسنه خمسة وعشرون عاما . ومكث بمكة وقد ظهرت عليه علائم الكمال من طهارة نفس ونقاء سيرة وصفاء سريرة حتى لقبه العرب بالصادق (الامين)

ولما بلغ عليه السلام الاربعين سنة اختاره الله تعلى لرسالته فانزل عليه الوحي المبين وبعثه بشيرا ونذيرا للعالمين . فصدع بما أمِرَ به ، وبلّغ ما أوحى اليه ربه . وكانت الدعوة اولاً سريّة فأسلم نفر قليلون ، منهم خديجة وابو بكر الصديق وعلي بن ابي طالب وغيرهم ، وبعد ثلاث سنين امره الله باعلان دينه الصادق فلبّى داعي ربه وجاهر مشركي قريش بالاسلام ، فآمن منهم فريق وظلّ الاكثرون من عباد الاصنام على اضطهاد المسلمين . ولحق الرسول من ذلك أذًى عظيم كرَمْيِهِ بالحجارة وسدِّ بيته بالحطب وتوعده بالخنق والقتل .

الهجرة النبوية — ولما اشتد اذى قريش بالمسلمين أشار النبيء على اصحابه بالهجرة الى يثرب ثم لحقهم بنفسه صحبة ابي بكر الصديق في السنة

الثالثة عشر من ظهور الدعوة [١] فقابله اهلها بكل حفاوة واكرام وعاهدوه على مقاومة المشركين وبايعوه على ذلك بيعتي (العقبة) و (الرضوان)، فقوي ازر الاسلام بالانصار - وهم سكان المدينة - واخذ الدين في الانتشار كما سنذكره .

وصف الدين الاسلامي - احسن تعريف بالدين الحنيف هو ما اجاب به جعفر بن ابي طالب لما سأله النجاشي ملك الحبشة عن الاسلام، قال: « ايها الملك، كنا اهل جاهلية نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الارحام، ونسيء الجوار، ويظلم القوي منا الضعيف حتى بعث الله الينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه، وامانته، وعفافه. فدعانا لتوحيد الله، وان لا نشرك به شيئا، ونخلع ما كنا نعبد من الاصنام، وأمر بصدق الحديث، واداء الامانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة والحج، فآمنا به وصدقناه » .

فما اصدق هذا الوصف المختصر لحالة العرب قبل الاسلام والرقي الاخلاقي الذي ادخلته الرسالة المحمدية على الجاهلية!

انتشار الاسلام - لما تمتّن عضد الاسلام بالمهاجرين والانصار اخذ الدين السمح ينتشر بسرعة بالحكمة والدعوة الحسنة وتجرّد المسلمون لقتال من قاوم الدعوة من المخالفين الوثنيين فلم تمض غير مدة قصيرة حتى

---

(١) لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة فيما بعد أمر باتخاذ الهجرة النبوية (الموافقة لسنة ٦٢٢ من ميلاد عيسى) مبدأ التاريخ الاسلامي وهو التاريخ المتداول الان بين المسلمين شرقا وغربا ويعرف بالهجري .

عمّ الاسلام انحاء جزيرة العرب . وهاك أهم الوقائع التي باشرها النبيء بنفسه :

١ ـ غزوة (بدر الكبرى) (١) وقعت في السنة الثانيـة للهجرة انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبينـا رغما عن قلة عددهم اذ كانوا ٣١٣ بازاء الف مشرك من زعماء قريش •

٢ ـ غزوة (أُحُد) (٢) أعلنتها قريش لاخذ ثار قتلاهم يوم بدر فلما دارت رحى الحرب أشاع المشركون وفاة النبيء فحصل للمسلمين من ذلك الفشل ثم تراجـع المسلمون كما هو مبين في كتب السير . وفي هذه الغزوة شجّ وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم •

٣ ـ غزوة (الاحزاب) أو الخندق تحزّب فيهـا المشركون وزحفوا على يثرب ـ وهي المـدينة ـ وحاصروها فأمر النبيء بحفر خندق حول المدينة باشارة سلمان الفارسي ، وانتهى الحصار بتفرّق شمل المتحزبين شذر مذر اذ أرسل الله عليهم ريحاً عاصفة شتتت جموعهم •

٤ ـ غزوة (خيبر) (٣) حدثت في السنة السابعة وانتصر فيها المسلمون وفتحوا حصونها . وقد اظهر علي بن ابي طالب في هذه الوقعة بسالة واقداماً باهرين •

فتح مكة ـ واستمرت الغزوات ـ والظفـر حليف الاسلام ـ الى ان كانت السنة الثامنة من الهجرة وفيها فتح النبيء « مكة » ودخلها في عشرة آلاف مجاهد من أصحابه ، وطهّر البيت الحرام من أصنام الجاهلية . وفتح مكة اعظم نصر للاسلام اذ به أكمل الله على المسلمين دينهم وأتمّ عليهم

---

(١) بدر ـ اسم مكان به ابار ماء واقع بين مكة والمدينة

(٢) احد ـ هو جبل قريب من المدينة

(٣) خيبر ـ اسم مدينة ذات حصون كائنة في شمال يثرب كان يسكنها اليهود

نعمته ورضي لهم الاسلام دينا . وما ذاع خبر هذا الفتح حتى أسلمت القبائل وامتد الدين ولم يبق بالجزيرة من يشرك بالله ، وبذلك اتحدت كلمة العرب وصاروا امة واحدة متحدة قلباً وقالبا على اعلاء راية الاسلام في العالم باسره .

وفاة النبي — وبعد فتح مكة رجع النبي الى المدينة حيث اقام ستتين يدبر شؤون المسلمين الى ان كانت السنة الحادية عشر [1] فمرض عليه الصلاة والسلام في بيت زوجته عائشة بنت ابي بكر الصديق ، وتوفي يوم الاثنين الثاني عشر ربيع الاول وسنه ٦٣ عاما . قضى منها ٤٠ سنة قبل النبوءة و ١٣ سنة في مكة بعدها و ١٠ سنين في المدينة بعد الهجرة ، ففي تلك المدة اليسيرة بلّغ محمد بن عبد الله ورسوله رسالته الثابتة التي انقذت الجزيرة العربية من الشرك والهوى . وانارت العالم شرقا ومغربا اذ ارشدته الى سبيل الهدى وخلصته من الضلال والغواية .

الفتوحات الاسلامية — توفي النبي ولم يعهد بالخلافة لاحد ، فانتخب المسلمون للنظر في مصالحهم (ابابكر الصديق) ولقبوه بخليفة رسول الله . تولى ابوبكر والاسلام في خطر شديد لارتداد أكثر القبائل ، فبحسن سياسته ومضاء عزمه وتدبيره أطفأ نيران الفتن وبدد شمل المنافقين والمرتدين فاعاد للاسلام سطوته بانحاء جزيرة العرب . ولما تلاشى امر الردة ، وجه ابوبكر عنايته للخارج فارسل جيشا جرارا للعراق تحت قيادة القائد الشهير (خالد بن الوليد) وآخر للشام برئاسة ابي عبيدة عامر بن الجراح ، ففتحت الحِيرَة صلحا وانتصر المسلمون بالشام وتم فتحه فيما بعد . ومما يجدر بالذكر هنا الوصية التي القاها هذا الخليفة الجليل على (اسامة بن

---

(١) السنة الحادية عشر للهجرة توافق عام ٦٣٢ من الميلاد .

زيد) الذي جهّزه لقتال الروم ، قال له : « لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلًا ولا شيخاً كبيراً ولا امراة ، ولا تقطعوا نخلا ، ولا تفسدوا زرعا ، ولا تحرقوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للاكل » . فما احكم هذا الكلام العمراني البليغ . وتوفي ابوبكر رضي الله عنه سنة ١٣ . وقد اوصى بالخلافة الى (عمر بن الخطاب)

خلافة عمر ـ وعلى عهد هذا الخليفة العادل اتسع نطاق الفتوحات الاسلامية الكبرى . من ذلك فتح الشأم بعد واقعة اليرموك سنة ١٣ التي فاز فيها المسلمون فوزا مبينا على عساكر الروم الكثيرة العَدَد والعُدد ، وتم فتح البلاد الشامية جميعا على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح سنة ١٥ ، ثم الاستيلاء على معظم المملكة الفارسية عقب واقعة القادسية الشهيرة سنة ١٦ ، ووقعة نهاوند سنة ٢١ . وفتحت البلاد المصرية على يد عمرو ابن العاص سنة ٢٠ . وهذا القائد المشهور هو الذي فتح برقة وغزا طرابلس الغرب سنة ٢٢ ، وعلى اثر ذلك توفي عمر رضي الله عنه بطعنة من احد العبيد الاشقياء . وفضائل هذا الخليفة وعدله ورفقه بالرعية أكثر من ان تحصى ، وهي مبسوطة في كتب التاريخ المطوّلة .

خلافة عثمان ـ وتولى بعده (عثمان بن عفان) بانتخاب اعيان الصحابة وكان رضي الله عنه ورعا تقيا ، ومن مآثره الخالدة جمعه القرآن الكريم وتوزيعه مصاحف صحيحة على الاقطار الاسلامية . سنة ٣٢ هـ.

وفي مدة هذا الخليفة كان الغزو الاول لبلاد « افريقية » . وحيث وصلنا الى هذا الفتح فلنعد الى اخبار المملكة التونسية . وانما أتينا بخبر ظهور الاسلام وانتشاره تمهيداً لتسلسل الحوادث ، وبالله التوفيق .

٤ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مبدإ الاسلام

(من ظهور الإسلام الى فتح افريقية)

الخلفاء الراشدون	تاريخ الولايه	أهم الحوادث
	من الهجرة الى سنة ١١ منها	ظهور النبي العربي صلى الله عليه وسلم ـ الدعوة الى الاسلام ـ الهجرة الى المدينة ـ بيعة العقبة ـ غزوة بدر : سنة ٢ ـ غزوة احد ـ غزوة الاحزاب ـ فتح مكة سنة ٨ ـ حجة الوداع ـ وفاته عليه الصلاة والسلام .
ابوبكر الصديق	من ١١ الى ١٣	حرب الردة ـ ابتداء الفتوحات الاسلامية ـ غزو الشام والعراق .
عمر بن الخطاب	من ١٣ الى ٢٣	اتساع الفتوحات ـ فتح الشام : سنة ١٥ ـ فتح فارس : سنة ١٦ ـ فتح مصر : سنة ٢٠ ـ فتح برقة وغزو طرابلس الغرب : سنة ٢٢ .
عثمان بن عفان	من ٢٣ الى ٣٢	جمع القرآن ـ سنة ٣٢ ـ ارسال المصاحف العثمانيه الى الاقطار ـ غزو افريقية : سنة ٢٧

الدور الاسلامي الأول

من سنة ٢٧ الى سنة ٢٩٦ هـ.

الاستيلاء العربي

غزوة افريقية ـ أسلفنا فيما سبق الكلام عن انحطاط السلطة البيزنطية وما آلت اليه البلاد من انقسام كلمة الروم وضعف حكومتهم وتلاشي زمام الامور من ايديهم .

في خلال سنة ٢٧ من الهجرة ـ الموافقة لعام ٦٤٧ من الميلاد ـ أمر الخليفة عثمان عَامِلَه على مصر وأخاه من الرضاع (عبد الله بن سعد بن ابي سرح) بالمسير الى افريقية ، فقصدها في عشرين الفاً من الصحابة والتابعين ، وبعد أن قطع هذا الجيش مفاوز برقة وطرابلس دخل القطر التونسي واناخ على (سبيطلة)(١) حيث يقيم أحد عُمّال الروم وهو المسمى (جرجير)(٢) الذي كان خلع طاعة حكومة قرطاجنة البيزنطية وادعى الاستقلال . فلما نزل الجيش العربي على عاصمته تأهّب جرجير للحرب وخرج في مائة الف مقاتل من الروم والبربر ، والتحم القتال فنصر الله المسلمين وقتل جرجير

---

(١) سبيطلة ـ وتسمى عند الروم « سوفيْطُلَه » مدينة كائنة باواسط القطر التونسي في الجنوب الغربي من القيروان ، كان لها شان في تاريخ الرومان والبيزنطيين ولم تزل بها اثار هائلة تشاهد .

(٢) جرجير ـ هو اسم أطلقه مؤرخو العرب على البطريق الرومي المشار اليه وهو تحريف اسم (غريغور).

بضربة من يد (عبد الله بن الزبير) وانهزمت عساكره العديدة ، فدخل العرب سبيطلة ومنها بثّوا السرايا في الناحية الجنوبية الى جهة الجريد . وقد اسرع الروم والبربر الى طلب الصلح ، فامنّهم الامير عبد الله بن ابي سرح وصالحهم على مقدار من المال ـ قيل ثلاثمائة قنطار من الذهب [1] فدفعوه له . وقفل الجيش العربي راجعاً الى مصر سنة ٢٩ ، بعد ان مهّد النواحي للفتح الحقيقي .

العَبَادِلَة السبعة ـ وتعرف هذه الغزوة بغزوة « العَبَادِلَة السبعة » وذلك لان الجند الاسلامي كان به سبعة من وجوه الصحابة اسمهم عبد الله وهم : عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، أحد كُتَّاب وحي رسول الله . عبد الله بن الزبير بن العوّام ، وامه أسماء بنت ابي بكر الصديق . عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . عبد الله بن جعفر . عبد الله بن عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود . عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي ، رضي الله عنهم .

هدنة في الغزوات ـ وبعد غزو افريقية بقليل استشهد عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ . وانتُخِب مكانه عليّ بن ابي طالب ولم يكد هذا الخليفة الراشدي يباشر الامر حتى قام في وجهه معاوية بن أبي سفيان الاموى يطالب بالخلافة لنفسه . وآل الامر الى شقاق عظيم بين المسلمين نتجت عنه فِتَنٌ داخلية اشغلت الامة عن الفتوح . ودام الحال الى مقتل عليّ ، كرم الله وجهه سنة ٤٠ . فاصلح الله بالحسن بن علي أمر المسلمين حيث اجتمع الناس

---

(١) والقنطار ذهبا يساوي ٨٤٠٠ دينار فيكون المبلغ المدفوع على وجه الصلح مليونين ونصف فرنك ذهبا على سبيل التقريب .

على مبايعة معاوية الذي نقل مقر الخلافة من المدينة الى دمشق الشام وصيّرها خلافة وراثية .

عود الغزو لافريقية — لما استقر الامر لمعاوية سيّر لغزو افريقية جيشاً يتألف من عشرة آلاف مقاتل تحت رئاسة (معاوية بن حُدَيْج الكندي) فقدمها سنة ٤٥ . وبلغ قيصر الروم خبر هذا الوفد فارسل الى قرطاجنة نجدة معتبرة على طريق البحر ، والتقى المسلمون بالنصارى ومن انضم اليهم من البربر قرب (أَلجم) فهزموهم . وبعث معاوية (عبد الله بن الزبير) الى سوسة ففتحها كما بعث (عبد الملك بن مروان) [1] الى (جَلُّولا) [2] والى بنزرت ففتحهما عنوة . واستقر المسلمون بعدة أماكن من افريقية . وفي هذه الغزوة استشهد الصحابي الكبير (أبو زمعة عبد الله البَلَوي) ودفن قريبا من القيروان حيث ضريحه الآن رضي الله عنه .

عقبة بن نافع — ثم رجع معاوية بن حديج الى مصر فجاء مكانه (عقبة بن نافِع الفِهْري) ، قدم هذا الامير على افريقية سنة ٥٠ . وأول ما شرع فيه تخطيط مدينة اسلامية سماها (القيروان) [3] واحاط بها سوراً بسيطا وجعل في وسطها الجامع المنسوب الان اليه ، وابتنى دار الامارة

---

(١) عبد الملك بن مروان من بني امية تولى الخلافة الاسلامية فيما بعد (من سنة ٦٥ الى ٨٦) ولم ينسه ارتقاؤه هذا غزوه لافريقية اذ انه تذكر امرأة بربرية كانت اكرمته قرب بنزرت ، فكاتب عامله بافريقية ان يحسن اليها ولاهل بيتها .

(٢) جَلّولا — اسم لمدينة كانت تبعد عن القيروان باربعة وعشرين ميلا تقريبا وهي الان خراب ويعرف مكانها بعين جلولا .

(٣) القيروان — لفظ فارسي دخيل في العربية ومعناه محط الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب .

حذوه . وبعد ان أقر المسلمين بهـا أخذ عقبة يغزو الروم ويشرد البربر الى ان استقدمه الخليفة الى المشرق وأمّر مكانه الامير (ابي المهاجر دينار) فدخل افريقية سنة ٥٥ . وبعث سريـة الى (جزيرة شريك) (١) تحت قيـادة (حَنَش الصنماني) (٢) فافتحها وأسلم على يده كثير من سكانها من جملتهم الزعيم البربري «كُسَيْلَه» .

رجوع عقبة الى افريقية ـ مات معاوية بن ابي سفيان وتولى الخلافة ابنـه اليزيد ، فرّد عقبة ثـانياً الى افريقية سنـة ٦٢ ، فتدارك أمر القيروان بعد ان تداعى ، ثم استخلف عليها (زُهَيْر بن قَيْس البَلَوي) ، وخرج في جنده الى الجهاد يلاد المغرب . وابتدأ بـالجريد فمهده وسار الى (الزاب) (٣) فشتت شمل البربر الباغين في النواحي الجنوبية الى ان اذعنوا ، ووصل بـه الفتح الى المغرب الاقصى ولـم يصدّه عن تقدمه إلا المحيط الاطلنطي . يُروى ان عقبة لما انتهى الى البحر أقحَم فرسه فيه ورفع يديه الى السماء ثم قال باعلى صوته : « اللهم أشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هـذا البحر لمضيتُ في البلاد أقـاتلُ من كفر بك حتى لا يُعْبَد أحدٌ من دونك ! » ثم قفل راجعا يريد افريقية .

ثورة البربر ـ ولمـا كان عقبة بوسط طريقه تقدمتـه جيوشه ولم

---

(١) جزيرة شريك ـ هي شبه جزيرة الوطن القبلي ، شرقي مدينة تونس ، واليها ينسب باب الجزيرة احد ابواب الحاضرة

(٢) هو حنش بن عبد الله الصنعاني من افاضل التابعين ، ولد بصنعاء وشهد غزو افريقية وفتح الاندلس مع موسى بن نصير ثم رجع لسكنى القيروان وبها توفي (سنة ١٠٠) وقبره مشهور حذو ضريح ابي زمعة البلوي

(٣) الزاب ـ تعريف قديم للقسم الجنوبي من عمالة قسنطينة وقاعدته مدينة بسكرة

يبق معه إلا نفر قليل من جملتهم « كُسَيْلة » الزعيم البربري الذي كان اسيراً عند عقبة . فاغتنم كسيلة تلك الفرصة واعلم قومه بقلة المسلمين فهجم البربر فجأة على عقبة واصحابه وكانوا نحو الثلاثمائة فقاتلوا قتال الابطال وتكاثر عليهم العدو فاستشهدوا جميعا في مصرع واحد سنة ٦٤

قال العلامة ابن خلدون : « وأجداث أولئك الشهدآء ـ عقبة واصحابه ـ بمكانهم ذلك من ارض الزاب (١) لهذا العهد . وقد جعل على قبر عقبة أسنمة ثم جُصِّص واتخذ عليه مسجد يعرف باسمه ، وهو في عداد المزارات ومظانّ البركة ، بل هو أشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفّر فيه من عدد الشهدآء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ احدٌ مُدّ احدهم ولا نصيفه »

مشاهير التونسيين

عقبة بن نافع

ولد عقبة في اوائل الهجرة النبوية فعد لذلك صحابي المولد . تولى امارة جيش افريقية مرتين كما مر ، وغزا المغرب من اوله الى منتهاه . وهو الواضع لاول حجر اسلامي بافريقية بتاسيس مدينة « القيروان » وجامعها الاعظم الذي ما زال يشاهد هيكله الشامخ ، ولذا رصعنا باسم « عقبة » تاج شهرآء التونسيين .

ومن أجمل ما يؤثر عن هذا القائد الشهير وَصِيَّته لابنائه بالقيروان لما عزم على فتح المغرب ، قال لهم : « يا بني ! اني بعت نفسي من الله ، ولا أدري ما يقضي

(١) يعرف هذا المكان اليوم باسم « سيدي عقبة » وهو واحة صغيرة في غاية الجمال بالقرب من بسكرة في الجنوب من ولاية قسنطينة .

عليّ في سفري . يا بني اني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها . أمْلَوا صدوركم من كتاب الله فانه دليل على الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به السنتكم ويدلكم على مكارم الاخلاق ، وأوصيكم ان لا تداينوا ولو بعتم العباء فان الدين ذلّ بالنهار وهمّ بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم . ولاتقبلوا العلم من المغرورين فيفرقوا بينكم وبين الله ، ولاتأخذوا دِيناً إلاّ من اهل الورع فانه أسلم لكم ، ومَن أحتاط سلم ونجا ! »

ثم سار عقبة حيث يدفعه وجدانه الديني وجاهد في الله حق جهاده حتى أبلى البلاء الحسن في اعلاء كلمة الله واشادة معالم الاسلام .

استرجاع افريقية ـ لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة الاموية وعلم ما احاط بمسلمي افريقية أمر عامله على برقة (زُهير بن قيس البلوي) بالسير الى القيروان وانقاذها سنة ٦٩ ، فزحف زهير بجنوده على البربر وبعد قتال عنيف هلك كسيلة ورجاله واسترجع المسلمون عاصمتهم فعمروها وصَلُح شأنها . ثم ان الامير زهير ارتحل للمشرق بعد أن مهّد راحة افريقية وامّن سكان القيروان ، فلما كان على ساحل برقة صادف عساكر للروم نزلت هنالك . فقاتلهم حتى استشهد فيمن كان معه .

الفتح الحقيقي ـ لما بلغ عبد الملك هذا الخبر عزم على تطهير افريقية من غارات البربر فندب لذلك قائداً من شهرآء جيوشه وهو (حسان ابن النعمان الغساني) فقدم الى القيروان في اربعين الفا ـ سنة ٧٧ ـ ولم يدخل افريقية قبل اعظم من هذا الجيش . ومن بوادر اعمال حسان ان قصد (قرطاجنّة) التي لم تزل حينئذ قاعدة ملك الروم ، فحاصرها وكسر قَنَاتها لقطع الماء عنها وشدد عليها الحصار الى ان فتحها عنوة واذعن من

التجأ اليها من النصارى . غير انه لم يكد ينصرف حسان عنها حتى تحصّن بها أقوام من الروم والبربر ، فرجع اليهم حسان وشردهم وأمر بهدم الحصون من قرطاجنة لئلا يعود اليها المخالفون . سنة ٧٨ .

الكاهنة البربرية — ثم ان حسان سار الى ناحية (جبال أوراس) (١) حيث علم ان البرابرة اجتمعوا تحت لواء امرأة بربرية اسمها دهيا بنت تابتت وسماها العرب (الكاهِنَة) . فتقدم الجيش العربي نحوهـا والتقى بفرسانها والتحم بينهما القتال ، فانهزم حسان ومـات كثير من رجاله . فكرّ راجعا الى بلاد طرابلس واقـام هنالك الى ان وافاه المدد من المشرق ، فعاد حينئذ في طلب الكاهنة وجموعها .

تخريب افريقية — في خلل تلك المـدة امتلكت الكاهنة القطر التونسي ، وكانت تتبع حركات حسان بطرابلس ، فلمـا ايقنت رجوعه بعد موافاة النجدة اليه ، جمعت رجالها وقالت لهم : « يا قوم ! ان العرب لا يطلبون من افريقية إلا المدن والذهب والفضة ، ونحن انما نريد المزارع والمراعي ، فالراي عندي تخريب المدن والحصون وقطع الاشجار حتى تنقطع اطماع العرب » وأمرت للحين بتنفيذ الامر ، فهُدّمت المدن والقرى ، وحرقت الغابات والاحراش ، وعاثت يد الفساد فيها فانعدم العمران الافريقي من اصله . وقد فات الكاهنة ان المسلمين انما كانوا يرمون الى غاية أرقى ومقصد اسنى مما توهمته .

قتـل الكاهنة — ولم يمنع هذا التخريب رجوع حسان الى

---

(١) الاوراس — سلسلة جبال بالجنوب الشرقي من عمالة قسنطينه (الجزائر) نهاية ارتفاعها ٢٣٠٠ ميتر

افريقية واقتفاه أثر الكاهنة ، فلحقها بقصر (ألجم) وقيل في غير ذلك المكان وهزمها شرّ هزيمة ـ سنة ٨٤ ـ ومن ذلك الحين أخلد البربر الى الطاعة ودانت افريقية للاسلام .

مآثر حسان ـ لما استقام الامر وتقلصت شوكة البربر التفت الامير حسان الى عمارة البلاد ، فجدّد بناء الجامع الاعظم بالقيروان ، ثم توجه الى قرطاجنة فأسس بقربها أول مصنع اسلامي وهو المكان المعروف اليوم « بدار الصناعة » لانشاء السفن والمراكب الحربية ، وقد جلب لهذا الغرض الف عائلة من قبط مصر فأقرّهم هناك ، تبعاً لسياسة مخدومه الخليفة عبد الملك بن مروان . ومن آثار حسان ايضا نصب الخراج على الاراضي وتدوين الدواوين الدولية بافريقية ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية ، ومن حكمة حسّان وتدبيره السياسي أن وزّع على صغار فلّاحي البربر مساحات كبيرة من الاراضي الدولية التي كانت فيما مضى مِلْكاً للحكومة البيزنطية ، وباقرار البربر في الارض ومساعدتهم على الارتزاق من الزراعة استمال قلوبهم وقرّبهم من الاسلام ، حتى انه اتخذ منهم جيشاً عظيماً أعان العرب فيما بعد على فتوح المغرب والاندلس ، وهي سياسة رشيدة من التدبير الصالح بمكان . وبذلك كانت ولاية هذا الامير تعتبر بحق مبدأ للفتح الاسلامي الحقيقي .

موسي بن نصير ـ تولى موسى [1] بعد حسان ووفد على افريقية

---

(١) ابو عبد الرحمان موسى بن نصير اللخمي ـ ولد سنة ١٩ للهجرة وتوفي سنة ٩٨ بالمدينة ، وهو من وجوه التابعين ، كان أبوه نصير من أعيان حَرَس معاوية بن ابي سفيان ، وكان موسى مهابا كريما شجاعا ، قيل لم يهزم له جيش قط

- سنة ٨٥ - وتولى فتح زغوان ونواحيها . ثم صار الى المغرب فوطد هناك الامن واستعمل على (طنجة)[1] وما والاها تابعه (طارق بن زياد) البربري وابقى معه سبعة عشر الفا من العرب واثني عشرة الفا من مسلمي البربر وامر العرب بتعليمهم ما تيسر من القرآن وضروريات الدين .

فتح الاندلس — ولما رجع موسى الى القيروان كتب الى طارق يأذنه بالسير الى غزو الاندلس ، فجهز طارق جيشا به اثني عشرة الفا واجتاز البحر الى اسبانيا وكان نزوله بمكان عرف باسمه (جبل طارق) . يروى ان طارقا لما حلّ بالاندلس أحرق السفن وقال لمن معه : « أيها المجاهدون ! لقد آن الاوان فالعدو أمامنا والبحر خلفنا . ولم يبق إلاّ الموت . فاختاروا احدى الموتتين » فاختار المسلمون الجهاد . فانزل الله عليهم نصره المبين حيث افتتحوا في برهة يسيرة جل بلاد الاندلس . ولما رأى موسى ما أتيح لطارق من الفتح الجليل ، أراد ان يشارك تابعه في الظفر . فاستخلف ابنه (عبد الله) على افريقية وعبر البحر فدخل الاندلس - سنة ٩٣ - وأتمّ ما شرع طارق في فتحه ، ثم قفل راجعاً يجرّ وراءه مغانم جسيمة . وبعد ان أقام برهة بالقيروان ارتحل الى المشرق - سنة ٩٥ - وخلف ابنه (عبد العزيز) على الاندلس ، وابنه (عبد الله) على افريقية .

إسلام البربر — قضى ولاة افريقية المدة التي ذكرناها من الفتح في الاشتغال بتمهيد البلاد وكسر شوكة الثائرين في وجه الاسلام . فلما أخلدوا الى الطاعة واستتب الامن في اقطار المغرب . انصرف الولاة لتأييد

---

(١) طنجة — فرضة مهمة على البحر المتوسط بشمال المغرب الاقصى مواجهة لاسبانيا .

سلطانهم في البلاد على أساس الدين المتين ، فحرصوا على ادخال البربر في الاسلام ونشر تعاليمه السمحة بين القبائل . ولم يكن حرص الخلفاء الامويين دون ذلك ، فباعتنائهم المستمر تيسر اتمام هذه المهمة ، وأكبر مساعد كان على ذلك هو الخليفة العادل (عمر بن عبد العزيز) فان من مآثره الفاخرة ترتيب عشرة فقهاء من اعيان التابعين [1] لارشاد البربر وتعليمهم اللغة العربية . وقدم هؤلاء الفقهاء افريقية - سنة ١٠٠ - مع الامير (اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر) وانتصبوا بجهات الولاية ، واسفرت نتيجة مساعيهم عن تسارع الاهليين للانخراط في الاسلام اولا ، ونبوغ كثير من ابنائهم في العلوم الدينية حسبما نلمع بذكره .

معاملة الاسلام للبربر — قضت حكومة الاسلام ان كل من يدين به يكون عضواً عاملا في جملة اعضاء اسرته الكبرى ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وعلى هذه القاعدة الحكيمة جرت سياسة ولاة افريقية مع مسلمي البربر ، فقد عقد حسان بن النعمان لابني الكاهنة بعد اسلامهما على جيش يتألف من اثني عشر الف مقاتل . وهذا موسى بن نصير سير لفتح الاندلس تابعه طارق بن زياد البربري في جند بعضه عرب وغالبه من الافريقيين

---

(١) اشهر فضلاء هذه البعثة الدينية هم : « ابو عبد الرحمن عبد الله الحبلي » رئيس الارسالية ، مشهور بالعلم والفضل والورع ، شهد فتح الاندلس ثم سكن القيروان وبنى بها جامعا وتوفي سنة ١٠٠ وقبره معروف مزار - « اسماعيل بن عبيد المعروف بتاجر الله » من اهل المعروف والخير ، بنى مسجدا كبيرا وسوقا بالقيروان نسبا اليه ، توفي مجاهدا في غزو صقلية سنة ١٠٧ ، ولقب تاجر الله لانه جعل كسبه لله عز وجل يصرف ريعه في وجوه البر والخير - « ابو الجهم عبد الرحمن بن رافع التوخي » من وجوه التابعين وهو اول من استقضى بالقيروان وبها توفي سنة ١١٣

وهلم جرا . وقد قدّر الاهالي هذه السياسة الاشتراكية حق قدرها فتسابقوا لاعتناق الاسلام وصاروا بفضل ذلك هم الفاتحون وهم الآمرون. ولم يمض على الفتح الاسلامي إلا القليل حتى اندمج البربر في الامة العربية وصاروا يتحاشون الانتساب لاصولهم . وفيما سنقصه عليك من الحوادث من هذا القبيل شواهد لا تحصى .

عبيد الله بن الحبحاب ـ قدم افريقية ـ سنة ١١٦ ـ من قبل هشام ابن عبد الملك ، فاصمد جيشا بقيادة (حبيب بن ابي عبيدة بن نافع) الى السوس والصحراء الكبرى وارض السودان فغزا جميعها ورجع غانما ، ثم سيره ـ سنة ١٢٢ ـ في اسطول الى جزيرة صقلية فنزل على قاعدتها (سرقوسة) وظفر ظفرا جليلا وقفل بجزيتها الى القيروان . وفي السنة التالية ـ عام ١٢٣ ـ عاد ابن الحبحاب الى المشرق بعد ان خلد بافريقية مآثر جميلة منها انشاؤه لجامع الزيتونة بتونس ـ سنة ١١٦ ـ وتجديده لدار الصناعة التي غزت مراكبها صقلية كما تقدم وغيرها من جزائر البحر .

ظهور الخوارج ـ كان للخلافات السياسية الحادثة في المشرق أواخر القرن الاول للهجرة رنّة عظيمة بالبلاد المغربية .

وبيان ذلك ان فريقا من المسلمين لما رووا ما آلت اليه امور الامة من الانقسام بعد واقعة (صِفّين) وتحيّز أغلب الصحابة لعلي بن ابي طالب ورهط منهم لمعاوية بن أبي سفيان ، ظهرت طائفة تدعي الاصلاح ، فخرجت عن الفريقين ونقضت بيعة علي ولم تعترف بالبيعة لمعاوية ، وأسست لها حزبا مستقلا عرف باسم (الخوارج) . ثم انقسم الخوارج انفسهم بعد ذلك الى نحل متعددة اشتهرت باسماء زعمائها « كالصفرية » و « الازارقة »

و « الاباضية » وغيرهم ، وقد ألبسوا مذاهبهم أصباغا دينية تأييداً لمساعيهم السياسية .

الخوارج بافريقية ـ ومـا كادت تنتقل آراء اصحاب هذه النحَل الى افريقية الشمالية حتى اغتنم البربر انشقاق كلمة المسلمين فرصةً للتمسك ظاهراً باحدى هذه الشِيَع وحملوا راية العصيان في وجه الحكومة الاموية ، وانتشرت حركة الخوارج بسرعة في كافة المغرب وبالاندلس التابعة لامارة القيروان اذ ذاك .

قام بافريقية (عُكَاشَة الصُفْري) في جمع عظيم من البربر الصفرية فقاتله الامير (حنظلة بن صفوان) الى ان هزمه وشرد جموعه ـ سنة ١٢٤ ثم خرج (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) وادعى الولاية لنفسه ، فألتف حوله ثوّار البربر وتغلبوا على القيروان ـ سنة ١٢٩ ـ واضطر حنظلة الى الرحيل للمشرق على عهد مروان بن محمد الاموي .

وزاد الطين بلـة تراجع دولة بني امية بظهور العباسيين ، فاشغل هذا النبأ العظيم الخلفآء عن احوال افريقية .

وفي خلال تلك المـدة اضطربت الامارة الافريقية وتسلط عليها بعض الاجناد وهم « الفهريون » من ذريـة عقبة بن نـافع رضي الله عنه وأولهم (عبد الرحمن بن حبيب) المشار اليـه ، ولم يستقم لهم حـال لان خوارج البربر كانوا ينازعونهم الامر واستمر الهرج الى ان تأيدت الدعوة العباسية وانتقلت الخلافة الاسلامية الى العباسيين ، فاهتموا بشان الولايات .

محمد بن الاشعث ـ ارسله الخليفة ابو جعفر المنصور ـ سنة ١٤٤ ـ

لانقاذ افريقية ، فقدمها في اربعين الفا وحارب الخوارج وهزم كبيرهم (ابا الخطاب) وبدّد الخوارج ودخل القيروان وابتنى سورها ـ سنة ١٤٦ ـ وضبط الامور . ثم ثار عليه (عيسى بن عجلان) ونظرا لضعف القوة الباقية معه التجأ ابن الاشعث الى المشرق ، فعيّن الخليفة مكانه .

الاغلب بن سالم التميمي ـ وكان الاغلب هذا من انصار (أبي مسلم الخرساني) في نشر الدعوة العباسية ، مشهورا بالرأي والحزم والشجاعة . قدم افريقية ـ سنة ١٤٨ ـ وقاوم البربر الصفرية حتى استقام له الامر ، ثم أعاد الثوار الكرة فنهض اليهم الاغلب في جيوشه والتقى بهم قرب سبخة تونس ـ سنة ١٥٠ ـ فاصيب بسهم فتاك قضى به نحبه ، وهو والد ابراهيم ابن الاغلب الآتي .

٥ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الفتح العربي

(من سنة ٢٧ الى سنة ١٥٠ هجرية)

اسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبد الله بن ابي سرح	٢٧ - ٢٩	الغزوة الاولى لافريقية وتعرف بغزوة العبادلة السبعة ـ النزول على سبيطلة ،
معاوية بن حديج	٣٤ - ٤٥	فتح سوسة وبنزرت ـ واقعة قمونية قرب القيروان ،
عقبة بن نافع الفهري	٥٠ - ٦٤	تاسيس القيروان : سنة ٥٠ ـ فتح الجريد وغزو المغرب الاقصى ـ استشهاد عقبة بالزاب ،
حسان بن النعمان	٧٨ - ٨٨	فتح قرطاجنة وتخريب حصونها ـ قتل الكاهنة وتشريد عصابتها ـ انشاء دار صناعة بتونس ،
موسى بن نصير	٨٨ - ٩٥	فتح الاندلس على يد طارق بن زياد : سنة ٩٢
عبيد الله بن الحبحاب	١١٦ - ١٢٣	غزو السوس والصحراء والسودان ـ تاسيس جامع الزيتونة ،
محمد بن الاشعث	١٤٤ - ١٤٦	مقاومة خوارج البربر القائمين بافريقية ـ انتقال الخلافة من بني أمية الى العباسيين : سنة ١٣٢

الامراء المَهَالبة ـ لما بلغ المنصور خبر ما لاقاه الاغلب ورجاله بافريقية بعث اليها واليا (عمر بن حفص بن قبيصة) من آل المهلب [١] فوصل ـ سنة ١٥١ ـ ولم يلبث إلا قليلا حتى ثار عليه (ابو حاتم الاباضي) في جموع عظيمة من الثوار وحاصروه بالقيروان حصارا افضى لاكل الدواب والميتة، وفي اثناء ذلك علم عمر أن الخليفة وجه لانقاذه (يزيد بن حاتم). فانف وقال: «لاخير في الحياة بعد ان يقال اخرجه يزيد من الحصار، انما هي رقدة ثم أبعثُ الى الحساب» وخرج للمحاصرين ـ سنة ١٥٤ ـ فقاتلهم حتى استشهد.

(٢) يزيد بن حاتم المهلبي ـ أتى افريقية في ستين الف ولقي رجال ابي حاتم الاباضي ففتك بهم، وقمع المخالفين وضبط الامور بحزم وعزم، ولما تمهدت الراحة وجه اهتمامه لعمارة البلاد، فجدد بناء جامع القيروان ـ سنة ١٥٧ ـ ورتب اسواق التجارة، وافرد لكل صناعة مكانا. وكان يزيد من احسن الامرآء سيرة، وأشدهم حزماً وثباتا، وأخباره في الشهامة والنجدة والسخآء مشهورة. وفي كرمه قيل البيت السائر:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى　　يزيد سليم والاغر ابن حاتم

ومن مناقبه في الفضل انه مرّ يوما بضواحي القيروان فرأى غنما كثيرة وعلم انها لابنه فزجره عن اتخاذها ومزاحمته العامة في أسباب التكسب، وامر بذبح جميعها وأباحها للناس فتناولتها الايدي ونشرت جلودها

---

(١) المهالبة او آل المهلب بن أبي صفرة ـ بيت عربي طائر الصيت مشهور بالشجاعة والكرم. تقلد افراد هذه العائلة على عهد الدولة الاموية والعباسية المناصب العالية والولايات الجليلة.

على زبوة سميت من يومئذ « كدية الجلود » وحكى عنه الامام سحنون انه كان يقول : « والله ما هبت شيئا قط ، هيبتي من رجل ظلمته وانا اعلم ان لا ناصر له إلا الله ، فيقول الله حسبك ! الله بيني وبينك ! » وهذه غاية الغايات في التقوى والورع . وكانت وفاة يزيد في رمضان - سنة ١٧١ - وخلفه في الامر ابنه « داود » مدة تسعة اشهر الى ان قدم عمه روح .

مشاهير التونسيين

عبد الرحمن بن زياد

(١) ابو البقا عبد الرحمن بن زياد بن انعم المعافري الافريقي ، ولد سنة ٦٤ للهجرة ، فعد لذلك أول مولود في الاسلام بعد فتح افريقية . وكان أبوه زياد من وجوه الجند العربي الذي قدم مع عقبة للمرة الثانية . رحل عبد الرحمن للمشرق للتفقه في الدين فروى عن جماعة من التابعين ، وصاحب زمانا أبا جعفر المنصور العباسي قبل خلافته وزاولا العلم جميعا ، ثم رجع الى افريقية وولي القضاء العام بها وانتفع به جم غفير ، وعاد مرة اخرى للعراق واجتمع بابي جعفر المنصور وقد ارتقى للخلافة فعرض عليه المقام ببغداد فلم يقبل ،فسيّره قاضيا على افريقية صحبة محمد بن الاشعث وبقي عبد الرحمن على القضاء الى ان توفي في رمضان سنة ١٦١ على عهد الامير يزيد بن حاتم ودفن رضي الله عنه بمقبرة باب نافع من القيروان .
ومن شعره يتشوق الى مسقط رأسه مدة اقامته بالعراق .

ذكرتُ القيروان فهاج شوقي ❁ وأين القيروان من العراقِ
مسيرة أشهر للعير نصا ❁ وللخيل المضمَّرة العتاق
فبلّغ أنعما وبني أبيه ❁ ومن يرجي لنا وله التلاقي
فان الله لو خلى سبيلي ❁ لجد بنا المسير الى مزُاق (١)

---

(١) مزاق - هو اسم لافريقية قديما.

ومن منثور كلامه وهو يدل على عفته وورعه قوله : « إذ رأيت الهدية دخلت دار القاضي فاعلم ان الامانة قد خرجت منها »

---

(٣) رَوْح بن حاتم ـ تولى افريقية بعهد من هارون الرشيد ، فسار بالعدل والحلم ، وفي ايامه تصدّعت شوكة البربر وانقادوا للدين فتمكنت السلطة المضرية من الافريقيين ، وكان رَوْح أكبر سنا من اخيه يزيد ، فلما دنا اجله وأحسّ بذلك قواد الجند تخوّفوا من شغور الولاية وكتبوا الى الرشيد . وتوفي رَوْح ـ سنة ١٧٤ ـ فبايع الملاء ابنه (قَبيصة) الذي قام نائبا الى ان وصل

(٤) نصر بن حبيب المهلبي ـ وكان عالي الهمة ، بسط العدل والاحسان في المدة اليسيرة التي تولاها ، ولم تطل مدته اذ عزله الرشيد ـ سنة ١٧٧ ـ وعيّن مكانه

(٥) الفضل بن رَوْح ـ أرسل حينما انتصب ابن اخيه (المغيرة) عاملا على مدينة تونس فأساء السيرة وأوغر صدور الرعية . فاشتكى منه أعيان الامة وكبرآء الجند الى عمه ، فتثاقل عن جوابهم وافضى الحال الى طرد المغيرة جبراً وانتخاب (عبد الله بن الجارود) من ابناء الجند عوضا عنه فطمع هذا الاخير في الامارة وعمد الى القيروان وحاصرها ثم أخرج منها الفضل ودحضه الى قابس ـ سنة ١٧٨ ـ وبذلك انقرضت ولاة المهالبة بافريقية . وكم من عامل تسبب بظلمه وسوء تدبيره في سقوط الدولة (والملك لله وحده) .

هَرْثَمَة بن أعْيَن ـ بعثه الرشيد ـ سنة ١٧٩ ـ فأحسن السيرة وتحبّب للناس فدانت له قلوبهم ورقابهم . ومن آثاره بافريقية بناء

قصر المنستير [١] وسور مدينة طرابلس . ثم ان هرثمة لامر ما عزم على التخلي فاستقال من الولاية ورحل - سنة ١٨١ - وخلفه

محمد بن مقاتل العكي - كان محمد هذا أخا للرشيد من الرضاعة ، وفد على الولاية - سنة ١٨١ - وسلك مع الامة سيرة الجور والعنف ظناً منه ان الخليفة أقطعه البلاد لقرابته منه ، فتوغرت عليه الصدور واختلت لديه الامور وثار عليه عامله بتونس (تَمّام بن تميم التميمي) فخرج له العكي ورجع مهزوما وتحصن بدار سكناه بالقيروان وتمادى تمّام في متابعته حتى اطرده من العاصمة - سنة ١٨٣ - فاستنجد العكي حينئذ بعامل الزاب (ابراهيم بن الاغلب) ، واسرع ابراهيم الى نجدته وقمع الثوار بثبات وتدبير . وعند ذلك وافى عهد الخليفة بعزل العكي وتسمية ابراهيم ، وصارت الامارة وراثية كما سنذكره بعد .

نظام افريقية العربية - من تاريخ الفتح الى انتصاب الدولة الاغلبية كانت إدارة البلاد الافريقية منوطة لعهدة وُلاة يعيّنهم الخليفة ويسيرهم من المشرق نواباً عنه ، ويقيم الوالي بدار الامارة [٢] بالقيروان لان وظيفته تقتضي النظر الاعلى في شئون الدواوين الرسمية ومن أهمها : ١) ديوان الجند - ٢) ديوان الخراج - ٣) ديوان الرسائل . ولكل واحد منها فروع يقوم بخدمتها كتاب ومحاسبون .

---

(١) المنستير - مدينة ساحلية بين سوسة والمهدية ، كانت في اول امرها معقلا يرابط به المسلمين لحماية الثغر من غارات نصارى البحر المتوسط ، ثم بنى الناس حول القصر شيئا فشيئا الى ان صارت مدينة اواخر القرن السادس للهجرة .

(٢) دار الامارة - انشأها عقبة بن نافع لما أسس القيروان وجعلها جوار الجامع الاعظم من ناحيته القبلية .

امـا جهات البلاد فكان يديرها عُمّال يختارهم الامير ، وكانت افريقية منقسمة اذ ذاك الى خمسة أعمال كبرى ٠

١) تونس ـ وما يليها من شمال القطر التونسي

٢) الزاب ـ وقاعدته « طُبْنَة » وهو يمتد الى جنوب عمالة قسنطينة

٣) قسطيلية ـ وهي بلاد الجريد اليوم وقاعدتها مدينة « توزر »

٤) طرابلس ـ ونواحيها لحد برقة

٥) المغرب ـ ويحتوي على بلاد المغرب الاقصى والسوس وقاعدته تارة « طنجة » وتارة مدينـة « وَلِّيـلَى » ودام ذلك الى ان استقلت دولـة الادارسة وأسسوا مدينة « فاس » فصارت قاعدة لهم ٠

وربما كان يعتري تقسيم الاعمَال على هذه الصورة بعض التغيير كالتحاق « الاندلس » بافريقية قبل استقلالها و « صقلية » بعد فتحهـا ، وانما حصل ذلك بحسب الظروف والزمان ٠

٦ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة المهالبة

(من سنة ١٥١ الى سنة ١٨٤ هجرية)

اسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عمرو بن قبيصة المهلبي	١٥١ - ١٥٤	حرب البربر الخوارج – استشهاد الوالي عمرو
يزيد بن حاتم	١٥٥ - ١٧١	مقاومة الاحزاب المخالفين من الخوارج وغيرهم – تجديد بناء جامع عقبة بالقيروان
روح بن حاتم	١٧٢ - ١٧٤	خضوع البربر للسلطة العربية
الفضل بن روح	١٧٧ - ١٧٨	ثورة الجند العربي لسوء سيرة العمال
هرثمة بن أعين	١٧٩ - ١٨١	بناء قصر المنستير وسور طرابلس
محمد بن مقاتل العكي	١٨١ - ١٨٤	اختلال أمور افريقية لسوء الادارة – هياج العمال بالجهات – العهد من الرشيد لابراهيم بن الأغلب بامارة افريقية

الدولة الاغلبية

الاستقلال الداخلي ـ لما وصل أمر الرشيد بعزل محمد العكي رغب اهل افريقية في بقاء (ابراهيم بن الاغلب) عليهم وداخلوه بطلب الامارة ، فعرض ابراهيم الامر على الخليفة واشترط على نفسه ان يترك المائة الف دينار (مليون وخمسمائة الف فرنك ذهبا) التي كانت تأتي من مصر سنوياً إعانة لافريقية على القيام بمصالح الامارة ، والتزم بأن يدفع خراجاً للخلافة قدره اربعون الف دينار ذهبا في كل عام . فاستشار الرشيد وزرآءه ورجال دولته ومنهم هرثمة بن أعين أمير افريقية السابق ، فاستصوبوا الرأي ووافقوا عليه لما علموا من صفات ابراهيم الحميدة . فكتب الرشيد له العهد بالولاية في جمادى الثانية سنة ١٨٤ وجعل الامارة لعقبه يتوارثونها من بعده ، ومن ذلك الحين أصبحت افريقية مستقلة في داخليتها وبقيت مرتبطة بالخلافة العباسية في امورها العمومية المهمة . وعلى هذه القاعدة انتصبت (الاسرة الاغلبية) على عرش القطر التونسي وأدارت شؤونه ما ينيف عن المائة عام .

١) ابراهيم بن الاغلب ـ كان ابراهيم قوي العزيمة ثابت المبدأ لا تزعزعه الشدائد ، وكان مع ذلك عالما أديبا خطيبا ، ذا نجدة وباس ، رؤوفا بالرعية . ولي الامر وافريقية في غاية الاضراب والاختلاف فما زال حتى دانت له البلاد عربها وعجمها واجتمعت عليه الكلمة . شرع سنة ٢٨٥ في بنآء مدينة على ثلاثة اميال من القيروان سماها (العباسية) [1] وانتقل

---

(١) مدينة العباسية ـ وكانت تعرف ايضا « بالقصر القديم » انطمست الان أثارها وتسمى بقايا انقاضها « بقصور الاغالبة » في جنوب القيروان على اربعة كيلوميتر منها

اليها بـآل بيته وحشمه واتخذها دار امارة . وبها اقبل ابـراهيم سفرآء (شرلمان)[١] ملك الافرنج في أبهة عجيبة .

وحاول أهل طرابلس المخالفة على ابراهيم ـ سنة ١٨٩ ـ فبعث اليهم العساكر وقمع فتنتهم وساد الامن بأنحاءَ البلاد . وابراهيم هو اول من ادخل زنوج السودان بالجند الافريقي وبلغ عددهم في ايامه عشرة الاف . وتوفي ابراهيم في أواخر شوال ـ سنة ١٩٦ ـ وعهد بالامارة من بعده لابنه عبد الله .

٢) ابو العباس عبد الله ـ لمـا توفي ابراهيم كان ابنه « عبد الله » غائبا بطرابلس فاخذ له البيعة أخوه زيادة الله حتى قدم ـ سنة ١٩٧ ـ واستلم الامر واتبع سيرة العنف ، منها انه غيّر عشر الحبوب الذي يؤخذ من عين الحَب وجعله ضريبة على الاراضي أخصبت أم أجدبت وحدّد على كل فدان ثمانية دنانير (مائة وعشرون فرنكا ذهبا) فضاق الناس لذلك ذرعا . ونصحه كثير من العلماء والصالحين فاستهان بهم ولم ينتصح . ولولا ما مهده له أبوه من الدعة لما استقام له امر . وتوفي عبد الله ـ سنة ٢٠١ ـ فقام بعده اخوه

٣) زيادة الله الاول ـ بويع في ذي الحجة من السنة ووفاه التقليد من قبل المامون . وكان زيادة الله اعلم اهل بيته ، فصيح اللسان أحسن أبوه تربيته وضم لصحبته العلماء حتى تضلع في العربية وآدابها .

وفي ـ سنة ٢٠٨ ـ خرج عليه قـوم من الجند بتونس تحت رئـاسة (منصور الطُنبذي)[٢] واستولوا شيئا فشيئا على معظم الامارة وامتلكوا

(١) شرلمان ـ او كرلوس الكبير ـ احد ملوك فرنسا العظام تولى من سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ م . وكانت بينه وبين هارون الرشيد مواصلات ودادية ومهادات مبسوطة في التواريخ

(٢) الطُنبذي ـ نسبة الى طُنبُذَة قصرٌ حصين كان بمكان المحمدية على مقربة من مدينة تونس

القيروان ولبث زيادة الله بالعباسية يترصد الى ان امكنه الظهور على الثائرين وقتل قائدهم منصور ووضعت الحرب اوزارها فصفا له الجو .

فتح صقلية ـ تقدم الخبر عن غزو (جزيرة صقلية) مراراً على عهد ولاة افريقية السابقين . فلما استوثق الامر لزيادة الله وجد فرصة سانحة لفتحها بسبب الهرج الفاشي بها لتنافس ولاتها الروم المعينين من طرف قيصر القسطنطينية .

ففي ـ سنة ٢١٢ ـ جهز زيادة الله أسطولا عظيما بدار صناعة سوسة واستعمل عليه « أسد بن الفرات » قاضي القيروان وسيره الى صقلية . فنزل الجند بمدينة (مازرة) والتقوا بجموع الروم ، فهزموهم وغنموا ثم استولى المسلمون على عدة حصون ومدن من الجزيرة . وكتب زيادة الله الى المامون يعلمه بهذا الفتح .

مآثر زيادة الله ـ حظيت افريقية في ايام هذا الامير الجليل بعمران وافر حتى ان خراجها السنوي تضاعف وبلغ ثلاثة عشر الف الف درهم مرتين ـ ٢٦ مليون فرنك ذهبا ـ ونمو الثروة كما لا يخفى يساعد الامراء الصالحين على رقي البلاد وانشاء المعالم النافعة . وقد جدد زيادة الله بناء جامع عقبة من أصله وتركه على الهيئة التي هو عليها الى الآن ، واحدث جسرا عظيما قرب القيروان يعرف « بقنطرة أبي الربيع » وحصّن مدينة سوسة بسور محكم البناء زيادة على ما شيده من القصور والمعاقل مثل رباط سوسة المعروف بالقصر وغيره .

وتوفي زيادة الله في عزة ملكه يوم الثلاثاء ٢٤ رجب من ـ سنة ٢٢٣ ـ

مشاهير التونسيين

أسد بن الفرات

أبو عبد الله أسَد بن الفُرَات بن سِنَان ـ مولده سنة ١٤٢ ـ وقدم أبوه القيروان مع الامير محمد بن الاشعث . سمع أسد بتونس من علي بن زياد ثم ارتحل الى المشرق في طلب العِلم سنة ١٧٢ ، فلقي من اصحاب ابي حنيفة القاضي أبا يوسف ومحمد بن الحسن و زُفر ، واخذ عنهم وعن امام دار الهجرة مالك بن أنس « الموطا » وعن عبد الرحمن بن القاسم ، وعليه دوّن كتابه « الاسدية » نسبة الى اسمه . ورجع أسد الى افريقية فتصدى للتدريس ونشر العلم فسمع منه خلق كثير منهم سحنون وغيره . وفي سنة ٢٠٤ ولي أسد قضاء القيروان وبقي بهذه الخطة الى ان عزم زيادة الله بن الاغلب على غزو صقلية ، فطلب حينئذ منه أسد الاذن في الخروج الى الغزو كأحد الاجناد ، فعيّنه اميراً على الجيش ، فقال اسد : « أصلح الله الامير أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتوليني الامارة ؟ » فقال له زيادة الله : « اني لم أعزلك عن القضاء وقد وليتك الامارة وهي أشرف من القضاء ، فأنت قاض أمير » وخرج أسد في عشرة آلاف مقاتل الى ثغر سوسة وقد خرج لتشييعه الامير واهل العلم ووجوه الناس ولما ركب أسد ونشرت البنود والالوية وضربت الطبول وصهلت الخيول وراى أعيان الامة مصطفّة من حوله على الرصيف وقف وقال باعلا صوته : « لا الله إلاّ الله وحده لا شريك له ! يا معشر المسلمين ! ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفي هذا قط ، وما رأيت ما ترون إلاّ بالاقلام . فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والاخرة ! »

ثم اقلع الاسطول وحلّ بساحل صقلية وقاتل أسد وكابد المشاق وقد تمادت عزيمته وثباته حتى فتح من الجزيرة مواضع كثيرة .

وتوفي أسد من جراحات كثيفة اصابته في حصاره لمدينة (سرقوسة) عاصمة صقلية ، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٢١٣ ودفن بمحل استشهاده رحمه الله تعلى رحمة واسعة وجازاه عن الاسلام والمسلمين خير جزاء واوفره .

---

٤) الاغلب بن ابراهيم - وكنيته (أبو عِقّال) تولى بعد اخيه زيادة الله واحسن الى الجند فاستمال قلوبهم واجرى الارزاق الواسعة على عمّاله فقبض بذلك أيديهم عن الناس . وجهز جيشا لفتح ما بقي من صقلية - سنة ٢٢٤ - فاستولى على عدة حصون منها . وتوفي خلل ربيع الثاني - سنة ٢٢٦ - فتولى ابنه

٥) محمد الاول - ويكنى (أبا العباس) . كان عالي الكعب مظفرا في حروبه . انشأ عقب احدى انتصاراته مدينة بالمغرب الاوسط سماها (العبّاسية) . ومن اثاره تشييده لقصر مدينة سوسة وجامعها الاكبر القائم الذات لحد الان . ومن حسناته ايضا ولاية الامام (سحنون) قضاء افريقية وحِسبتها . ولم يزل معظما منصورا الى ان توفي - سنة ٢٤٢ - فقام بالامر بعده

٦) ابو ابراهيم احمد - بويع يوم وفاة عمه ابي العباس وهو ابن عشرين عاما وكان أجمل الاغالبة خَلقا وخُلُقا ، حسن السيرة ، فاضلا رفيقا بالرعية ، مولعاً بعمران البلاد ، كثير البر على حداثة سنه . كفاه أثرا باقيا المعالم الجليلة التي أمر بنائها ، منها الماجل الكبير بالقيروان المشتهر اليوم (بفسقية الاغالبة)[١] ، وماجل القصر بسوسة ، وادخل على جامع الزيتونة

---

(١) هذه الفسقية عبارة عن صهريج عظيم مستدير الشكل يبلغ قطره ١٥٠ ميتر ، ينصب فيه ماء اودية مجلوبة اليه بصنعة عجيبه . ومنه يشرب اهل القيروان في السنين المعطشة .

بمدينة تونس تحسينات فنية كسته ذلك الطراز البديع الذي نراه عليه اليوم من قباب مضلّعة وأعمدة رخام وزخارف ونقوش في الحجارة ، منها تلك الكتابة بالخط الكوفي العجيب المرسومة حول قبّة المحراب ، وتحاشى الامير ان يرسم اسمه عليها فنسبها الى الخليفة العباسي المستعين بالله ؛ كما بنى في جامع عقبة القبة العجيبة الخارجة عن البهو وفرشه بالبلاطِ الابيض ونصب به محراب الرخام المنقوش والمنبر العديم النظير ، وكل ذلك موجود الى الآن ، واصلح قنطرة باب ابي الربيع ، وجعل سوراً محيطا بمدينة صفاقس ، وله غير ذلك من المباني الشامخة والمعاقل الحصينة . وقد انفق هذا الامير على ما انشأه ثلاثمائة الف دينار (اربعة ملايين وخمسمائة الف فرنك ذهبا) وهو مبلغ جسيم بالنسبة لذلك الزمان ، وفي ايامه ـ سنة ٢٤٤ ـ استولى المسلمون على (قصر يانة) من أكبر حصون صقلية المنيعة ، وكتب بالفتح الى الخليفة (المتوكل) العباسي واهدى له من سبيها . وتوفي ابو ابراهيم يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة ـ سنة ٢٤٩ .

مشاهير التونسيين

الامام سحنون

أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠ وتلقى العلم بافريقية عن علي بن زياد وأسد بن الفرات ، ثم توجه في طلب العلم الى المشرق سنة ١٨٨ ، فزار مصر والحجاز والشام ، واخذ الفقه عن فطاحل تلك الامصار مثل عبد الرحمن بن القاسم وابن الماجشون ووكيع بن الجراح وغيرهم ، وعاد الى بلده سنة ١٩١ ، فاظهر بها علم اهل المدينة ومذهب مالك

بن أنس ، وهو أول من ركزه بافريقية مركزا ثابتا . ولما اشتهر سحنون وذاع صيته راوده الامير ابو العباس احمد بن الاغلب حولا كاملا على خطة القضاء حتى قبل منه الولاية سنة ٢٣٤ ، على شروط منها اطلاق يده في تنفيذ الاحكام الشرعية على اقاربه من بني الاغلب ورجال دولته ، ومنها الزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم ، فقبل احمد الشروط كلها وانتصب سحنون للقضاء وباشر الحِسبة والمظالم بنفسه ووفى العدل حقه الى ان لقب (بسراج القيروان) .

ولم يمنع سحنون مباشرته الاحكام ، من بث العلم ونشره فكان يحضر مجالسه بجامع عقبة تلامذة من جميع الاقطار المغربية والاندلس يروون عنه اصول الدين وفروعه ، ولقد عدّ له نحو سبعمائة رجل بالافاق تخرجوا عليه .

وألّف سحنون كتابا عظيما سماه « المَدوَّنة الكبرى » جمع فيه مسائل الفقه على مذهب مالك بن أنس .

وتوفي يوم ٦ رجب سنة ٢٤٠ في دولة محمد بن الاغلب ، ودفن بالقيروان وضريحه رحمه الله مشهور للخاص والعام .

وسمعة هذا الحبر ذائعة في العالم الاسلامي شرقا ومغربا .

---

٧) زيادة الله الثاني — بويع يوم وفاة ابيه ابي ابراهيم . وكان عاقلا حليما جميل الافعال ، إلا ان مدته لم تطل حيث توفي في ذي القعدة من ـ سنة ٢٥٠ ـ وولي بعده ابن اخيه

٨) محمد الثاني — ويلقب « بأبي الغَرَانيق » سُمِيَ بذلك لولوعه بصيدها حتى انه ابتنى قصراً للصيد انفق عليه ثلاثين الف دينار ، وبالرغم من ذلك كان كريماً رفيقا محبا للعدل . وعلى عهده فتحت نهائيا (جزيرة مالطة) وضمت الى امارة افريقية ـ سنة ٢٥٥ ـ واستولى المسلمون على عدة حصون من صقليه بعد حروب ومشاق . وتوفي أبو الغرانيق ـ منتصف سنة ٢٦١ ـ فقام بالامارة بعده ابن اخيه

٩) ابراهيم الاصغر – كان أبو الغرانيق المتقدم عهد لابنه واستحلف اخاه ابراهيم هذا على ان لا ينازعه الامر بل يكون نائبا عنه الى ان يكبر ، فلما مات اتى اهل القيروان لابراهيم وراودوه على قبول بيعتهم لما ظنّوا فيه من حسن السيرة والعدل ، فاعتذر أولا ثم أجاب طلبهم وانتقل الى قصر الامارة وباشر شئون المملكة . واختلف المؤرخون في سيرته فبعضهم ينسب اليه الاستقامة والفضل والبعض الاخر يذكر انه كان ظلوما غشوما سفاكا للدماء لما اصابه في آخر ولايته من مرض السوداء ، فقسد رأيه واسرف في التعدي وقتل من خدمه وأقاربه ما لا يحصى ، ومهما يكن من أمر فان إمارة ابراهيم الثاني تمتاز بانشآءات عظيمة الشأن خلّدت ذكره ، ورفعت في التاريخ قدره ، وكانت فخراً للقطر مدى الدهر .

في سنة ٢٦٤ ابتنى مدينة (رَقّادة) (١) قرب القيروان اتخذها داراً لملكه ، وانتقل اليها من (العباسية) مع أهل بيته ورجال دولته ودواوين الحكومة ، وقد أشاد فيها القصور والدور والصهاريج الضخمة لمآء الشراب ولسقي الحدائق الغنـاء التي احدثها ، ونصب في احدى عِماراتها « بيت الحِكمة » التي جلب اليها من بغداد ومن مصر علمآء أجلاء من أطبآء وفلكيين وموسيقيين ، وفتح ابواب مكتبتها الى القصّاد من كل البلاد ، فكانت مبعثا جديداً قويا لنشر الثقافة العلمية في افريقية العربية . وفي « رقّادة » اقتبل ابراهيم سفارات من ملوك الافرنج ومن قياصرة القسطنطينية وغيرها .

---

(١) رقادة – هي في جنوب القيروان تبعد عنها بثمانية اميال ، واطلال انقاضها ظاهرة منها القصر العظيم الشان المعروف (بالبحر) لمجاورته الى بركة من الاتساع والعظمة بمكان .

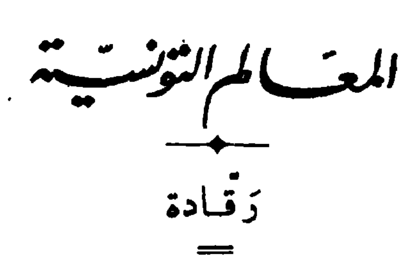
وبالجملة فان الامارة الاغلبية بلغت في مدته الى أوج القوة والحضارة والرقي .

وفي سنة ٢٦٤ نفسها فُتحت (سَرْقوسَة) قاعدة الروم بصقلية بعد ان حوصرت تسعة اشهر وبذلك تمّ الاستيلاء على سائر الجزيرة . وبلغ ابراهيم ان العباس بن احمد بن طولون خالف على أبيه صاحب مصر وسار الى المغرب بقصد امتلاكه ، فاستولى على « برقة » ثم حاصر طرابلس التابعة لافريقية . فسارع ابراهيم بارسال الجيوش ، وبعد قتال عنيف انهزم العباس بن طولون - سنة ٢٦٧ - ورجع لمصر خائبا . وانتقل ابراهيم بعد ذلك الى سكنى تونس واتخذ بها منازل عديدة منها القصبة في اعلا المدينة ، ثم تحرك - سنة ٢٨٣ - لمحاربة ابن طولون بنية امتلاك مصر ، فاعترضته في طرابلس قبائل « نفوسة » البربرية فهزمهم وكرّ راجعاً من طريقه .

غزو إيطاليا — وفي اثناء ذلك ورد على ابراهيم رسول الخليفة (المعتضد) العباسي حاملا تقليد الولاية الى ابنه (ابي العباس عبد الله) فامتثل ابراهيم الى الامر وسلم المقاليد الى ابنه . ثم حشد الناس لغزو بلاد الروم ، وركب من سوسة - سنة ٢٨٩ - في جيش جرّار يحمله اسطول عظيم وسار الى صقلية وعبر مجاز « مسينة » ودخل ارض ايطاليا الجنوبية ، فلاقاه سكانها بالطاعة وبالجزية ، ونازل مدينة (كسنته) [1] وقاتل قومها فاصابه رمح قاتل فتك به ، وقيل مات بعلة مزمنة . ويُروى ان ابراهيم كان قاصدا رومة ثم القسطنطينية لولا انقضاء اجله المحتوم . وقفل المسلمون به الى صقلية فدفنوه بقاعدتها « بلرم » وبني على قبره قصر . والملك لله وحده

---

(١) كُسَنْتَه - وتسمى اليوم (كُوسَنْتَسه) مدينة معتبرة بارض قلورية أو كلابرية قريبة من خليج طرنطة .



رَقّادة

مدينة رقادة بناها الامير ابراهيم بن احمد واتخذها داراً ووطناً ، وانتقل اليها من مدينة القصر القديم (العباسية) وبنى بها قصوراً عجيبة وجامعاً وعُمّرت بالاسواق والحمامات والفنادق ، واجرى اليها المياه ، واغترس فيها صنوف الثمار الطيبة والرياحين ، وبنى على القصور التي أحدث فيها سوراً ، وَأحدُ هذه القصور يسمى (بغداد) وآخر منها يسمى (المختار) فصارت بعد حين أكبر من القيروان وبينهما ستة اميال ، ولما وليّ زيادة الله الاخير انتقل اليها وحفر بها صهريجاً طوله خمسمائة ذراع وعرضه اربعمائة ذراع ، وأجرى اليه ساقية وسماه (البحر) وبنى فيه قصراً سماه (العروس) على اربع طبقات انفق فيه مائتي الف دينار واثنين وثلاثين الف دينار .

وكان عبيد الله المهدي يقول : « رأيت ثلاثة أشياء بافريقية لم أر مثلها بالمشرق » منها هذا القصر :

ولم تزل رقادة دار ملك بني الاغلب الى ان هرب عنها زيادة الله من عبد الله الشيعي ، وسكنها عبيد الله المهدي الى ان انتقل الى المهدية ـ سنة ٣٠٨ ـ فدخلها الوهن وخربت . « من ابن الابّار »

---

١٠) عبد الله الثاني ـ ويكنى (أبا العباس) جدّد البيعة على الناس لما خرج ابوه الى بلاد الروم . وكان شهما عفيفا منصفا أديبا ، استقر بتونس ولبس الصوف تنسكاً منه وجلس للمظالم بنفسه وكتب الى العمّال بالرفق في الرعية .

وفي خلال تلك المدة ظهرت بالمغرب الاوسط (في بلاد كتامة بجبال زواوة) دعوة الفاطميين من اهل البيت على يد الداعي « أبي عبد الله الصنعاني » ولاقت من البربر - لا سيما من قبيلة « كتامة » - أذناً صاغية فاخذت تنتشر بسرعة لحد ان هددت الامارة الافريقية ، وحاول أبو العباس قمع هذه الدعوة فلم يقدر لارتدائها بصبغة الدين وتمكّنها لذلك من نفوس عامة البربر .

وفي اوائل - سنة ٢٩٠ - اعتقل ابو العباس ابنه « أبا مضر زيادة الله » لما بلغه عنه من اعتكافه على اللذات واللهو وانه يروم الوثوب عليه ، وكان زيادة الله وقتئذ عاملًا لابيه على صقلية ، فعزله عنها وسجنه بتونس ، فداخل نفراً من مواليهم على قتل ابيه - وقيل تآمروا من تلقاء انفسهم - فوثبوا على عبد الله في نومه وعجّلوا به - ليلة الاربعاء ٢٩ شعبان من السنة - وأطلق زيادة الله من اعتقاله وبويع بالولاية .

سقوط الدولة الاغلبية - تولى زيادة الله الآخر ونار الدعوة التي اشعلها الفاطميون تأكل أطراف مملكته ولم يغن عنه شيئا تقرّبه من الخلافة العباسية تلك التي كانت في دور التراجع ، واشتدت صولة ابي عبد الله الصنعاني بالناحية الغربية ، فوجه زيادة الله جيشا يبلغ الاربعين الفا مع قريبه (ابراهيم بن أبي الاغلب) والتقى الجمعان - سنة ٢٩٦ - باحواز (الاُرْبُس) (١) فكانت الدائرة على الجيش الاغلبي . ولما بلغ زيادة الله خبر هذا الانهزام تحقق زوال أمره ، فجمع ماله وآل بيته وخرج من « رَقّادة » ليلة الاثنين ٢٦ جمادى الثانية من السنة وقصد المشرق مستنجداً

(١) الاربس - قرية آهلة بلشمال الغربي من المملكة التونسية تابعة لعمل الكاف

بالخليفة « المكتفي » العباسي ولم يتم له حال وبقي يتردّد ما بين مصر والشام في ترقب النجدة من الخليفة الى ان ادركه الاجل « بالرملة » من بلاد فلسطين، ومدة استيلائها مائة واثنتي عشرة سنة . وسبحان من لا ينقضي سلطانه .

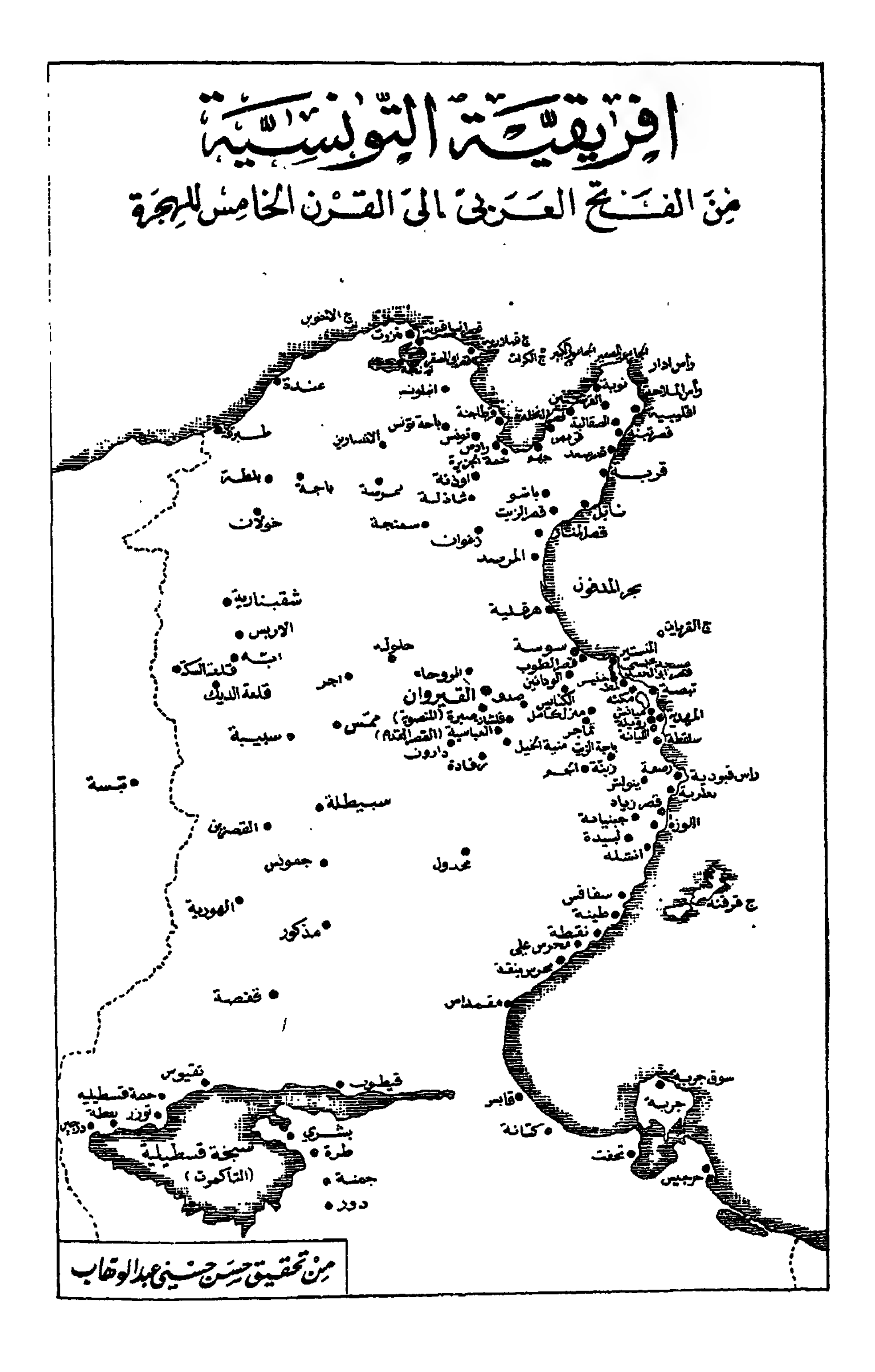
ويمكن ان يقال باختصار ان دولة بني الاغلب كانت اول دولة استقلت بحكم افريقية مع الاعتراف منها بالسيادة الذكرية للخلافة العباسية، وانها اعتنت في سائر مدنها بترقية البلاد مادّياً وادبياً ، وقد استعملت في سبيل ذلك كل الوسائل التي من شأنها تحسين الفلاحة بانشاء مصانع للمآء في كافة انحاء القطر ، ولترقية الصناعة والتجارة بتمهيد الامن وحراسة المواصلات ، حتى قال المؤرخ الكبير ابن الاثير : « كان القوافل والتجّار يسيرون في قطر البلاد آمنين مطمئنين » . وقد أشاد بنو الاغلب معالم فاخرة لا تحصى ذات منفعة عمومية .

علاوة على عنايتهم بنشر العلوم والفنون الامر الذي ساعد الشعب على اكتساب منصب ممتاز بين الامم ، ضف الى ذلك الفتوح العظيمة في البحر المتوسط بفضل منشآتهم العسكرية وقوة اساطيلهم التي لم يكن لها نظير في بقية الممالك الاسلامية .

٧ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الدولة الاغلبية

(من سنة ١٨٤ الى سنة ٢٩٦)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
ابراهيم بن الاغلب الاكبر	١٨٤ - ١٩٦	استقلال افريقية الداخلي ـ انشاء قصور العباسية ـ اتخاذ حرس من الزنوج ـ المواصلات مع الخارج ،
زيادة الله الاول	٢٠١ - ٢٢٣	فتح صقلية على يد أسد بن الفرات : سنة ٢١٢ ـ انشاء معالم نافعة ،
ابو ابراهيم احمد	٢٤٢ - ٢٤٩	انتشار العمران ـ بناء صهاريج كبيرة للماء ـ اتمام فتح حصون صقلية ،
ابو الغرانيق محمد	٢٥٠ - ٢٦١	فتح جزيرة مالطة : سنة ٢٥٥
ابراهيم الثاني	٢٦١ - ٢٨٩	انشاء مدينة رقادة ـ حرب ابن طولون ورده ـ غزوة بلاد الروم ـ موت ابراهيم بكسته من ايطاليا ،
ابو العباس عبد الله	٢٨٩ - ٢٩٠	ظهور دعوة الفاطميين في كتامة بالمغرب الاوسط ،
زيادة الله الثالث	٢٩٠ - ٢٩٦	انتشار الدعوة الفاطمية وانضمام البربر اليها ـ انهزام الجيش الاغلبي بالاربس ـ انقراض دولة الاغالبة ،


افريقية التونسية
من الفتح العربي الى القرن الخامس للهجرة
عنـدة
طبرقة
بلطة
باجة
خولان
شقبنارية
الاربس
قلعة الديك
سبيبة
تبسة
سبيطلة
القصرين
جمونس
الهورية
مذكور
قفصة
نفيوس
حمة قسطيلية
توزر
سبخة قسطيلية
(التاكمرت)
بشري
طرة
جمنة
دوز
قيطون
قابس
كتانة
جربة
سوق جربة
حرجيس
مقمداس
نقيطة
طينة
سفاقس
ج قرقنة
انشلة
لبيدة
جبنيانة
الوزة
قصر زياد
ينولتر
رصفة
سلقطة
المهدية
تبصة
المنستير
سوسة
هرقلية
المرصد
قصر الزيت
نابل
قربة
زغوان
سمنجة
شاذلة
اوذنة
تونس
ابلونة
القيروان
جلولة
الروحاء
اجر
ممس
داورن
رقادة
الكنائس
تماجس
ج القرياتة
بحر المدفون
من تحقيق حسن حسني عبد الوهاب

الدّور الاسلامي الثاني

الاستيلاء العربي البربري

١ ـ الدّولة العبيدية

تمهيد ـ اسلفنا ان نسل الامام علي بن ابي طالب . وهم الفاطميون ، ما زالوا يطالبون بالخلافة منذ خرجت عنهم ، ويرون انهم أحق بها دون غيرهم ، وقد تحزبت لهم شِيَع كثيرة ، فكان الخلفاء من بني أمية وبني العباس من بعدهم يتبعونهم في كل مكان بالتشريد والقتل . وانزوى فريق عظيم منهم باليمن لبُعدها عن محل الخلافة ، وأخذ يبث الدعوة للفاطميين بواسطة رجال مقتدرين أُرسلوا الى النواحي من جملتهم ذلك السياسي المقتدر (ابو عبد الله الصنعاني) . قدم أبو عبد الله هذا المغرب مع جماعة من كتامة كان التقى بهم في الحج ، ولما استقر ببلادهم واجتمع باعيانهم ورؤسائهم أظهر لهم الفقه والجدل فمالت القبائل البربرية لمقاله ورغبوا في صحبته ، وعندئذ جاهر بمذهبه وأعلن بامامة اهل البيت ودعا للامام المعصوم من آل الرضا . وبذلك صفا له البربر ودخلت كتامة في طاعته ، فنظّمهم نظاماً عسكرياً الى ان تحقّق أمرهم ، واذ ذاك زحف بهم على افريقية وافتتح مدنها الواحدة بعد الاخرى الى ان وقعت الهزيمة الكبرى على الجيش الاغلبي (بالأُرْبُس) كما تقدم . واقبل حينئذ « ابو عبد الله » على القيروان ودخلها بجنوده وخرج العلماء والاعيان للقائه ، فأمّن

الناس ووضع يده على دواوين الدولة الاغلبية وذخائرها . وبعد ان وطد الامور نهض الى (سجلماسة) بالمغرب الاقصى ، لانقاذ سيده « عبيد الله المهدي » الذي كان معتقلا هناك وسلّم مقاليد الملك اليه ·

١) عبيد الله المهدي - اول من تولى من الفاطميين بافريقية هو (عبيد الله) الملقب بالمهدي وبه سميت الدولة العبيدية [١] وقد اختلف النسابون في نسبه اختلافا كبيرا ، فمنهم من رفعه الى علي بن ابي طالب ومنهم من قدح في نسبه ، وعلى كل فالراي المعول عليه عند جلة المؤرخين هو صحة نسبته الى آل البيت ·

ورث عبيد الله الامامة الفاطمية عن أبيه ، ولما فشت دعوته بالشام طلبه (المكتفي) العباسي فانتقل الى العراق ثم بلغه خبر استيلاء داعيته على القسم الغربي من افريقية فارتحل الى مصر مستتراً بزي التجار ، ومنها دخل افريقية ولحق بسجلماسة حيث اختفى ، فاكرمه صاحبها اولاً ثم سجنه بداره الى ان انقذه رسوله الصنعاني ·

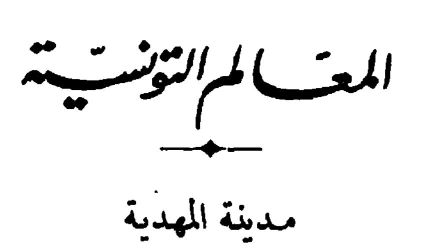
انتقل عبيد الله الى افريقية ونزل رقّادة واستحوذ على مخلفات بني الاغلب وكانت شيئاً كثيراً - ربيع سنة ٢٩٧ - ثم بايعه اهل القيروان البيعة العامة واستلم زمام الدولة وتلقّب بامير المؤمنين ، وهو اول من تجاسر من القائمين على لقب الخلافة . ولما دانت البلاد للمهدي وباشر الامور بنفسه ضرب على يد ابي عبد الله الداعي لما توسّم فيه من علائم التندم على تقديمه

---

(١) فرق المؤرخون بين (العبيدين) و (الفاطميين) وان كانت الدولة واحدة فاطلقوا الاسم الاول على امرآء هذه الاسرة المتولين بافريقية وخصصوا التعريف الثاني بمن تولى منهم الخلافة بمصر حسبما نبينه بعد ·

للملك . ولم يبطء المهدي بالصنعاني اذ عجّل بقتله آخر سنة ٢٩٧ . واستصفى آله . وكم يشابه هذا ما وقع (لابى مسلم الخرساني) مع المنصور العباسي ، والتاريخ يعيد نفسه .

وأنف عبيد الله بعد ذلك من الاقامة برقّادة لِما كان يوجس من مقاومة اهل القيروان - وهم سنيون - لمذهبه الشيعي ، فخرج - سنة ٣٠٠ - في طلب موضع لبناء مدينة تأويه وتصون اهل بيته ، فاتى تونس وقرطاجنة وطاف الساحل التونسي الى أن وقع اختياره على شبه جزيرة (جمّة) بين سوسة وصفاقس فامر ببناء مدينة في ذلك الموضع سماها (المهدية) نسبة اليه ، ولما تمّ تشييدها وتحصينها باقوى ما يكون انتقل اليها بمن معه - سنة ٣٠٨ - واتخذها مقراً لكرسيّه .



المعالم التونسية

مدينة المهدية

« المهدية مدينة جليل قدرها ، شهير في قواعد الاسلام ذكرها ، وهي من بناء عبيد الله المهدي اول خلفاء العبيديين واليه تنسب ، وكان ابتداء بنائه له سنة ٣٠٣ ، وجعلها دار مملكته .

« وأول ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه ابوابها ؛ ثم أمر بحفر مرسى المدينة ، وكان حجراً صلداً ، فنقره نقراً وجعله حصناً لمراكبه الحربية ، وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت ، تحصيناً للمرسى من دخول مراكب الروم ؛ وابتنى (دار الصناعة)

وهي من اعاجيب الدنيا ، ثم شرع في حفر الاهرآء بداخل المدينة ، وبنى الجِبَاب والمصانع ، واختزن الاهراء بالطعام ، وملأ الجباب بالماء .

« وكان اتساع المهدية في اول بنائها من الجوف الى القبلة قدر غلوة سهم ، فاستصغرها المهدي عند ذلك فردم من البحر مقدارها وادخله في المدينة فاتسعت ، والجامع الاعظم الآن والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر ، وابتنى لسائر الناس مدينة اخرى تسمى (زُوَيْلَة) وهي احدى المهديتين ، وبينهما قدر غلوة سهم ، وجعل الاسواق والفنادق فيها ، وأدار بها خنادق متسعة تجتمع بها مياه الامطار ، فكانت كالربض لمدينة المهدية ، وكان بخارجها الحَمَى المعروف بحمى زويلة ، وكان كله جنّات وبساتين بسائر الثمار وانواع الفواكه » .

(من رحلة التجاني التونسي)

وفي اثناء تلك المدة جهز المهدي جيشا ارسله الى مصر مع ابنه الاكبر (أبي القاسم) فاستولى ـ سنة ٣٠٧ ـ على كثير من المدن كالاسكندرية وبلغ (الفَيُّوم) ، كما ارسل جنداً لاخضاع أهل صقلية وقد خالفوا عليه فتمكن منهم وولى واليا عليهم من طرفه .

ولم يزل عبيد الله مظفراً مطاعا الى ان وافاه اجله المحتوم في ربيع الاول ـ سنة ٣٢٢ ـ فقام بالامر بعده ولي عهده

٢) القائم بامر الله ـ اسمه نزار ويكنى (أبا القاسم) اعتنى من اول ولايته بشان الاسطول ، فجهز سفنا عظيمة شحنها بالجنود وسيرها تحت قيادة (يعقوب بن اسحاق) الى بلاد الروم فافتتح مدنا وقلاعا عديدة منها (جنوة)[1] وغزا (كُرْسِكَا) و (سردانية)[2] وغيرهما . وبذلك

---

(١) جنوة ـ اعظم مرسى تجارية بالجهة الشمالية من ايطاليا .

(٢) كرسكا وسردانية ـ جزيرتان عظيمتان بغرب البحر المتوسط ، الاولى تابعة لفرنسا والثانية لايطاليا وقد ملكهما المسلمون زمانا طويلا .

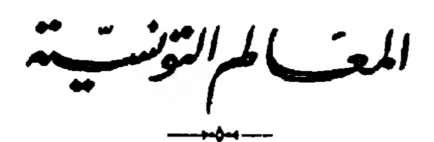
علا صيت المسلمين في البحر وخشيتهم نصارى السواحل . وكان انشاء هذا الاسطول بدار صناعة المهدية ومنها خرج للغزو .

وثار على القائم ـ سنة ٣٢٦ ـ رجل من الخوارج يسمى « أبا يزيد مَخْلَد بن كِيدَاد » ويدعى (بصاحب الحمار) . ظهر هذا الثائر بجبال (أوراس) وكان نُكَّارِياً يستحل الدمآء ، فاخذ يدعو الى السُّنَّة والانكار على مذهب الشيعة الى ان استمال أُمَماً من البربر وتلقَّب بشيخ المؤمنين . ولما تمكّن من القبائل زحف الى افريقية في جيش يبلغ المائة الف ، ووالى الهزائم على اتباع الخليفة العيدي وامتلك تونس والقيروان وضيّق على القائم ، وفي الاخيرة حاصره بالمهدية ، فاستعان أبو القاسم بكُتَامة وصَنْهَاجَة فابلوا في الدفاع عن ملكه البلاء العظيم . وفي هذه الاثناء توفي ابو القاسم في شوال ـ سنة ٣٣٤ ـ والحرب قائمة على ساق .

٣) اسماعيل المنصور ـ تولى بعد أبيه . وكان مَلِكا جليلا عالما بليغا . شمّر عن ساعد الجد واتبع أثر الثائر أبي يزيد الخارجي الى ان أوقع به بارض كِتَامة ، فطهر منه البلاد ـ سنة ٣٣٦ ـ بعد اقتحام مشاق لا تحصى دلّت على ثباته . ولما قفل المنصور الى افريقية دخل القيروان وامر بانشآء مدينة بالقرب منها سماها (المنصورية) [1] اعلانا لانتصاره ـ سنة ٣٣٧ ـ ثم حول نظره الى شؤون البلاد ، فشحن أسطولا لارض الافرنج وامّر عليه « القائد رَشيق » فاتيح له فتح كبير . وهو الذي استعمل على صقلية (بنى أبى الحسين) المشهورين بالكابيّين فاتصلت إمارتهم بها زمناً طويلا .

(١) المنصورية ـ وتعرف ايضا بصبرة على نصف ميل من القيروان . كان بها مباني قصور شامخة اضمحلت وانطمس رسمها ولم يبق منها اليوم سوى الموضع وبعض الانقاض

وتوفي المنصور ـ سلخ شعبان سنة ٣٤١ ـ ودفن في قصره بالمصنورية .



صبرة ـ المنصورية

« ومدينة صبرة متّصلة بالقيروان ، بناها اسماعيل المنصور سنة ٣٣٧ ، واستوطنها وسمّاها « المنصورية » وهي منزل الوُلاة الى حين خرابها ، ونقل اليها المعز بن المنصور اسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . ولها خمسة ابواب : الباب القبلي ، والباب الشرقي ؛ وباب زويلة ، وباب كتامة وهو جوفي ، وباب الفتوح ، ومنه كان يخرج بالجيوش .

« ويذكر انه كان يدخل واحد أبوابها كل يوم ستة وعشرون الف درهم (من المكوس) . ولما أعاد المعز بن باديس الصنهاجي بناء سور القيروان ـ سنة ٤٤٤ ـ جعل السور مما يلي صبرة كالفصيل حائطان يتّصلان الى مدينة صبرة ، وبينهما نحو نصف ميل ، ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس الاّ بعد جوازه على مدينة صبرة » .

(من « المسالك » لابي عبيد البكري) .

٤) المعز لدين الله ـ واسمه « أبو تميم معد » جلس على دست الخلافة بعد أبيه وكان من اعظم الملوك قدراً واجلهم خطرا . استهل المعز ولايته بارسال جيش الى المغرب الاقصى بامر قائده الطائر الصيت « جَوْهَر الكاتب » فجالت فيه عساكره ودوّخت نواحيه حتى أخضعتها ـ سنة ٣٤٢ ـ

واستولى على « فاس » عاصمة الامارة الادريسية ، وبذلك اتسعت مملكته من البحر المحيط الى برقة .

وفي ـ سنة ٣٥٨ ـ سير المعز القائد جَوْهراً في جيش كثيف الى مصر لما بلغه من اضطراب احوالها واختلال امورها بعد وفاة (كافور الاخشيدي) وما كاد يصل خبر مسيره الى العساكر الاخشيدية حتى تفرقوا هاربين ، فدخل جوهر مصر بدون مقاومة وخطب بها لسيده المعز بعد ان اختط مدينة سماها (القاهرة المعزية) [1] فاصبحت الديار المصرية تابعة للدولة العبيدية .

انتقال المعز لمصر ـ ثم ان جوهرا عوّل على امتلاك البلاد الشامية ، فارسل اليها جندا من عساكره الافريقية فاستولى على « الرملة » من بلاد فلسطين ثم على « دمشق » عاصمة الشام ـ سنة ٣٥٩ ـ ولما ورد خبر هذا الفتح الجليل الى المعز عزم على الانتقال الى مصر ، واخذ يرتب شؤون مملكته المتسعة . فاستخلف على افريقية والمغرب الامير (بُلُكّين بن زيري الصنهاجي) وأقرّ بقية الولاة على اعمالهم ، ثم تجهّز للرحيل فأعد الف حمل من الذهب ، وامر ببناء قصر في كل ثلاثين ميلًا ما بين القيروان ومصر . وكان خروجه من « المنصورية » باهله وجنده وذخائره في شوال ـ سنة ٣٦١ ـ في احتفال لم يسمع بمثله . ونزل « بالقاهرة المعزية » التي انشأها له قائده جوهر في ـ رمضان ٣٦٢ ـ فكانت مقرّ ملكه وملك الخلفاء الفاطميين من بعده الى اخر دولتهم [2] . وملك المعز ملكا لم يتسن لغيره ، فكانت اوامره

---

(١) القاهرة ـ هي قاعدة مصر الآن

(٢) تولى بعد المعز عشرة خلفاء فاطميين بمصر . من سنة ٣٦٥ الى ٥٦٧ هـ وقد ضربنا على اخبارهم صفحا اذ كانت دولتهم في غير البلاد التونسية

تنفـذ من اقصى الشام والحجاز الى السوس الاقصى . وتوفي بمصر يـوم الجمعة ١١ ربيع الاخر ـ سنة ٣٦٥ ـ (والله يؤتي ملكه من يشاء وهو على كل شيء قدير) .

عودة السلطة للبربر ـ تمتاز الدولة العبيدية على من تقدمها في الامر بكونها تأسَّست بدعوة الدين ، والقـائمين لنصرتها هم البربر من قبائـل افريقية مثل كِتامة وصنهاجة ، وقد كان الـولاة الامويون والامراء الاغالبة اجتهدوا في تكثير السواد العربي والجنود المضرية وجعلوها شَجًا في صدور البربر وعَضُداً لمقاومة الثورات الداخلية . فلما تولى ابراهيم الثاني من بني الاغلب ارتكب غلطا سياسيا تسبب عنه انقراض دولتهم . وذلك انه شرّد كثيراً من تلك الجيوش العربية الداخلين افريقية عند افتتاحها ، ومعظمهـم من قيس وتميم وقضـاعة والازد وسواهم ، ومن ذلك الحـين تطاولت رقـاب كِتَامة وغيرهم حتى لما دعاهم ابو عبد الله الصنعاني لامر العبيديين التفّـوا حوله وكانوا اكبـر مساعد على سقوط السلطة العربية . وضرورة ان الخلفاء العبيديين لما تسنى لهم الملك راعوا حقوق نصرائهم من البربر المشيدين لسلطانهم ، فاناطوا لهم أهم الوظائف واسنى المراتب من قيادة الجنود ورئاسة المصالح الدولية ، ولم يمض زمن طويل حتى تسلطوا على الولايات ، فانصرمت الدولة العربية المضرية وتلاشى نفوذها تدريجا وقامت على اطلالها سلطة القبائل البربرية مثل (كتامة) و (صنهاجة) و (هوارة) لقوة العصبية فيهم .

ومما زاد الطين بلة استقلال عبيد الله المهدي بخلافة افريقية وتسببه في تقسيم الدولـة الاسلامية ، وبذلك صارت دول :

١ ـ الخلافة العباسية بالمشرق وقاعدتها (بغداد).

٢ ـ الخلافة الاموية المجددة بالاندلس وقاعدتها (قرطبه).

٣ ـ الخلافة العبيدية الفاطمية بافريقية ثم بمصر والشام والحجاز واليمن.

فكان ذلك من اكبر الدواعي لتفريق كلمة الاسلام وتلاشي وحدتها السياسية (والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم).

٨ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الدولة العبيدية

(من سنة ٢٩٧ الى سنة ٣٦٢ هـ)

اسماء الخلفاء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبيد الله المهدي	٢٩٠ - ٣٢٢	تأسيس خلافة فاطمية بافريقية ـ قتل ابي عبد الله الداعي ـ بناء مدينة المهدية : سنة ٣٠٥ ـ محاولة الاستيلاء على مصر .
القائم بامر الله	٣٢٢ - ٣٣٤	الاعتناء بالاسطول ـ غزوات البحر والاستيلاء على جزيرتي كرسكا وسردانية ـ ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي .
اسماعيل المنصور	٣٣٤ - ٣٤١	مقاومة ابي يزيد الثائر والانتصار عليه ـ انشاء مدينة صبرة او المنصورية قرب القيروان .
المعز لدين الله	٣٤١ - ٣٦٢	الاستيلاء على المغرب الاقصى ـ امتلاك جوهر القائد الفاطمي لمصر وتأسيس مدينة القاهرة : سنة ٣٥٨ ـ انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر .

٣ ـ الدولة الصنهاجية

تمهيـد ـ تقدم لنا ان المعز لدين الله لما أزمع على الرحيل ونقل الخلافة العبيديـة الى مصر فكّر فيمن يبقيه على افريقية والمغرب . فـوقع اختياره على الامير (بُلُكِّين بن زيري) من قبيلة ذات عصبية قوية وبأس وهي قبيلة صَنْهَاجَة البربرية التي قامت بـأمر الدعوة الفاطمية بـالمغرب الاوسط ـ الجزائر ـ وايدت سلطانها بتلك النواحي . وكانت الرئاسة في صنهاجة للامير (زيري بن مناد) وهو اول من تولى من قومه ، وقاد الجيوش لنصرة العبيديين فتأكدت بذلك العلاقة بينـه وبين المنصور بن القائم لا سيما ايام حرب الخارجي مخلد بن كيداد كما المعنا اليه . ولـذا راعى المعز تلك الحقوق القديمة التي لصنهاجة على آبائه ، فعيّن منهم بلكين للنيابة عنه في المغرب .

١) بُلُكِّين بن زيري ـ عهد لـه المعز ـ سنة ٣٦٢ ـ على امـارة افريقية والمغرب ما عدا صقلية وكنـاه (بأبي الفتوح يوسف) وكان بُلُكِّين أشجع أهل بيتـه ، ذا راي ثاقب وعزم ثابت ، وهو الذي اختط مدينة (الجزائر) بأمر من أبيه وكذلك (مليانة) [١] وغيرها من المدن . وفي أيامه حدثت قلاقل بالمغرب الاقصى فقصدهما ـ سنة ٣٦٨ ـ في جيوش جرارة نظّمها بتدبير واستولى على « فـاس » العاصمة المغربية وشتت جموع زناتة وعانى حروبا عظيمة . ولم يزل مطاعا مظفرا الى ان توفي ـ سنة ٣٧٣ ـ في بعض حركاته بين (تلمسان و سجلماسة) فولي بعده ابنه المنصور .

---

(١) مليانة ـ مدينة بولاية الجزائر يبلغ عدد سكانها اليوم لعشرة آلاف .

٢) ابو الفتح المنصور ـ بويع بالامارة في مسجد القيروان وكان فارسا مقداما ، جرت بينه وبين أعمامه حروب هائلة قابلها المنصور بصبر وجلد حتى انهزموا ولحق بعضهم بـالاندلس فاتفق لهم هناك ان اسسوا مملكة بغرناطة ايام ظهور الطوائف بها . ولما ازدهت ايـام المنصور جهز هدية ثمينة للخليفة الفاطمي بمصر ، فاتاه منه سجل وهدية بها فيلة وزرافات وغير ذلك . وتوفي المنصور ـ سنة ٣٨٦ ـ فخلفه ابنه الاكبر باديس .

مشاهير التونسيين

ابن الجزار الطبيب

أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد يعرف بابن الجزار الطبيب . ولد بالقيروان أوائل القرن الرابع ونشأ في عائلة اشتهر افرادها في الطب . وتلقى احمد علوم اللغة والفقه ثم تخرج في الفنون الرياضية عن كبير الاطباء بافريقية (اسحاق بن سليمان الاسرائيلي) حتى برع وفاق استاذه ، وقد يعلو الفرع أصله .

قال الحكيم ابن جاجل : « كان أحمد قد أخذ لنفسه مأخذا عجيبا في سمته وهديه ولم يحفظ عنه بالقيروان زلة قط ولا أخلد الى لذة ، وكان يشهد الجنائز والاعراس ولا يأكل فيها ، ولا يركب قط الى أحد من رجال الدولة ولو الى السلطان » وذلك لنزاهة نفسه وانقطاعه لعلمه وعمله وكان له دكان يقبل فيه العائدين ويعالج فيه المرضى . وعلا صيت ابن الجزار وذاعت شهرته بالافاق شرقا ومغربا . وكانت وفاته بالقيروان سنة ٣٦٩ عن سن تناهز الثمانين عاما قضاها في النفع العام وخدمة الانسانية . وترك ابن الجزار تآليف معتبرة ضافية وضعها في فن الطب ، منها كتاب في علاج الامراض سماه « زاد المسافر وقوت الحاضر » وكتاب « طب الفقراء والمساكين » وآخر « في الذم والتحذير من اخراج الدم

لغير حاجة » وكتاب « سياسة الصبيان وتدبيرهم » وله في التاريخ والاخبار مصنفات جليلة منها « التعريف بصحيح التاريخ » ومنها « أخبار الدولة الفاطمية » وغير ذلك من المصنفات العلمية التي يطول تعدادها ، يكفيك شاهدا انه وجد في مخلفه خمسة وعشرون قنطارا من الكتب الطبية كلها بخط يده .

ولقد اعتنى علماء أوروبا من قديم الزمان بتآليف ابن الجزار وقدروها حق قدرها ، فترجموا جانبا وافرا منها الى اللغة اللاطينية وغيرها لاهمية ما احتوت عليه من الافادات الجمة . ولذا يحق لنا الافتخار بهذا الطبيب التونسي الذي رفع ذكر بلاده بمآثره الجليلة .

---

٣) باديس — وكنيته « أبو مَنَاد » انتصب بعد أبيه وكان مقرّه بقصور (سردانية) (١) قرب القيروان . احتفل باديس بولايته وتقليد الخليفة الفاطمي اياه امور المغرب — سنة ٣٨٧ — فاقام بالمهدية موكبا عجيبا استعرض فيه الجنود ومرت امامه مراكب الاسطول ورمى النفاطون بالنار الرومية ولعبت بين يديه الفيلة والزرافات وإبل ساطعة البياض لا نظير لها ، ووزعت عقب ذلك صدقات طائلة على الفقراء وابناء السبيل . فكان هذا الاحتفال من أجمل ما رأى الراؤن .

ثم بلغ باديس أن قبيلة « زناتة » خالفت بالمغرب الاوسط وتظاهرت بالعصيان ، فسير لها جيشا كثيفا — سنة ٣٨٨ — مع عمه « حمّاد » وجعل له ملك جميع ما يفتحه . فخرج حماد للثائرين وبعد ظفره بهم عاد الى جهة قسنطينة وابتنى قلعة حصينة نسبت اليه واتخذها مقرا للملك الذي استقل به . وعندئذ

---

(١) سردانية — منتزه عظيم انشأه الامراء العبيديون بجوار مدينة (جلولا) يبعد عن القيروان بثلاثين ميلا ، وكانت به قصور وبساتين عجيبة ولم يزل مكانه مشهورا بهذا الاسم الى الان .

تحقّق باديس الخطر وندم على ما فرّط ، فكاتب عمه - سنة ٤٠٥ - برفع يده عما حازه من الاوطان الشاسعة فامتنع حماد ، وساء ما بين باديس والعم وكانت بينهما حروب مبيدة كاد يظفر فيها باديس بعمه لولا طروق أجله فجأة بمدينة المحمدية في - ٣٠ ذي القعدة ٤٠٦ - فاستراح حماد إذ تمّ له ولعقبه من بعده مملكة بالمغرب الاوسط . وانقسمت من يومئذ دولة صنهاجة الى : امارة شرقية وتختها القيروان ، وغربية وقاعدتها (قلعة بني حماد) المشار اليها. وهو اول خلل ظهر بافريقية في الدور العربي البربري .

٤) المعز بن باديس ـ لما توفي باديس كتم خاصته الخبر وتفاوضوا بينهم فيمن يخلفه ، فاتفق رأيهم على انتخاب ولده « المعز » وكان اذ ذاك بالمهدية في حضانة عمته المحسنة الكبيرة السيدة (أم ملال) . فحملوا باديس الى افريقية وبعد دفنه بايعوا المعز على حداثة سنه لما تخيلوا فيه من الفطنة والنجابة الفطرية .

التمدن الافريقي ـ أشرنا فيما مرّ الى سعي الامرآء الاغالبة والخلفآء العيديين في تحسين البلاد وما بذلوه من الاجتهاد في ترقية سكّانها بتعميم العمران ونشر الدين والعلم واقتفائهم في ذلك أثر النهضة العربية الظاهرة اذ ذاك بالمشرق . فلما جآءت الدولة الصنهاجية نضجت نتائج تلك النهضة وحان أوان اقتطافها ، فكان المجتني لثمارها هو الدور العربي البربري .

بلغ القطر التونسي على عهد امرآء صنهاجة شأوا عظيما في التمدن الاسلامي لتوفر الاسباب المساعدة على الرقي المادي . فقد وصلت فلاحة البلاد من زراعة وغراسة الى مرتبة علياء بفضل الري العام الذي احيا موات

الاراضي ، فاخرجت الارض خيراتها المكنونة حتى صارت افريقية كطمير للمشرق والمغرب .

وترقت الصناعة الاهلية في عموم حواضر القطر ، فانتجت بضائع فاخرة كالزرابي الرفيعة والمنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية واواني الزجاج اللطيفة مما كان يرغب فيه الداني والقاصي ، يكفيك شاهد ان دخل الدولة من مكوس التجارة فقط بلغ على عهد المعز اربعمائة الف دينار (ستة ملايين فرنك ونصف ذهبا) على سبيل التقريب .

وبفضل هذين الموردين تدرب الافريقيون على الاتجار ، فحملوا برّاً وبحراً بضائع بلادهم الى الممالك البعيدة ورجعوا باثمانها فائزين .

النهضة الادبية ـ وبذلك نمت الثروة العمومية وساد الغنى وبسطت الرفاهية على السكان فاستقل كثير منهم بالعلوم والتدوين ، وازدهر سوق الادب وظهرت عندئذ حركة فكرية لم تر افريقية مثلها قبل ولا بعد . واذا علمت ان الامراء والكبراء كانوا يقبلون على المعارف ويبذلون النفس والنفيس في اقتنائها ومعاضدة المنتسبين اليها تيقنت ما فاز به القطر من النهضة العلمية العالية . على ان الاشتغال بالعلوم والادب لم يصد اولئك الامرآء والكبرآء عن الاهتمام بمصالح البلاد العامة . فان تنافسهم في تشييد المعالم والبناءات النافعة كالجسور والطرقات وصهاريج الماء ومآوي الفقراء والعجزة والحصون والاسوار قد بلغ حده زيادة على انشائهم القصور البهيجة والمنازه الجميلة التي كانت تماثل بل تفاخر ما خلده مسلمو الاندلس بجزيرتهم .

وبالجملة فقد حظي القطر التونسي في عهد الدولة الصنهاجية .

لا سيما ايام باديس وابنه المعز - باوفر نصيب من التمدن الاسلامي ، والله ولي على امره •

اعتلى المعز بن باديس دست الامارة - سنة ٤٠٦ - كما ذكرناه وباشر امر افريقية بحزم ثابت ورأي ثاقب ، وقاوم المخالفين حتى دانت له البلاد وزهت ايامه وعلا صيته فهادته الملوك على بعد الدار ورغبت في مصانعته . فقد اتاه اولا تقليد الخليفة الفاطمي من مصر يلقبه (بشرف الدولة) ثم وافته الوفود من الملوك . منها هدية ارسلها اليه - سنة ٤٢٣ - صاحب السودان تشتمل على عبيد وحيوانات غريبة منها زرافات وأسود ، واتته بعثة اخرى من قيصر القسطنطينية - سنة ٤٢٦ - تحمل هدية ثمينة قَبِلها المعز وأرجعها بما يلائم المقام •

وقعة الشيعة - ولبث المعز في عزه ونخوة ملكه الى حدود - سنة ٤٣٥ - وفيها تغيرت سياسته بسبب ثورة داخلية أوقعها الشعب على المتمسكين بمذهب الشيعة الذي كان نشره العيديون مدة استيلائهم على افريقية ، فقتل أهل القيروان الشيعة ومثّلت بهم العامة في الحواضر والبوادي ، ولم يتمكن المعز من ايقاف هذه الثورة الدموية بل اضطر لمساعدة الشعب ومجاراة الراي العام رغما عن تسامحه واجتنابه لسفك الدماء . ونبذ المعز من يومئذ دعوة الفاطميين علانية وخلع طاعتهم وحمل جميع اهل المغرب على اتباع مذهب الامام مالك بن انس حسما لمادة الخلافات المذهبية . ثم أذن بان يخطب على المنابر للخلافة العباسية - سنة ٤٣٩ - فوافاه من (القائم بامر الله) خليفة بغداد تقليد يعترف له بالاستقلال •

زحف بني هلال - لما بلغ خبر خروج افريقية عن السيادة المصرية

اهتز الخليفة الفاطمي وعظم عليه الامر لكن لم يكن منتهاه على المعز بن باديس بمكانه من قاصية المغرب واعتصابه بالقبائل إلاّ التحيل ، فدبر وزيره اليازوري مكيدة لينتقم بها من سكان افريقية وأميرها ، فاشار بتسريح أعراب (الصعيد)[1] من « بني هلال » و « بني سليم » و « رياح » و « زغبة » لاجازة النيل وكان ممنوعا عنهم وتسريبهم الى البلاد المغربية ، فاستصوب الفاطمي الرأي وأذن لهؤلاء الاعراب اجتياز النيل واعانهم بالمال والذخيرة. فانتشروا الى برقة كالجراد جندا همجيا لا يخاف الخالق ولا يحترم المخلوق ولما انتهت جموعهم المتوحشة الى افريقية ـ سنة ٤٤٠ ـ وكانوا زهاء الاربعمائة الف تحقق المعز الخطر . فخرج بنفسه في مقدمة عساكره المتألفة من صنهاجة وزناتة والتقى بهم قرب جبل (حيدران) [2] وهناك وقعت مقتلة مات فيها من الجانبين خلق عظيم ، ولولا انخذال زناتة لفاز المعز بالظفر لكن لم يبق معه إلاّ جنده الخاص وعبيده وكانوا نحو العشرين الفا ، و أُجبر المعز كرها على الرجوع الى « المنصورية » وأحاط بها سوراً اوصله بالقيروان ـ سنة ٤٤٤ ـ ولو لم يغن ذلك شيئا اذ اقتفى اثره الهلاليون وحاصروا عاصمته ، فلما راى المعز ما حل بالبلاد وما آل اليه أمره ركن الى الصلح على رفع الحرب مع الاعراب بعد ان امر سكان القيروان باخلائها والانتقال الى المهدية . ثم خرج المعز في اهله وحشمه من المنصورية ونزل بالمهدية على عامله بها ابنه الاكبر الامير تميم ـ رمضان سنة ٤٤٩ ـ واذ ذاك انطلقت أيدي الهلاليين ومن انضم اليهم من بطانة السوء في ارجاء افريقية ، فعاثوا فيها

---

(١) الصعيد ـ ناحية شاسعة بالجهة الشرقية من مصر تواجه البحر الاحمر .

(٢) حيدران ـ مكان بالجنوب الشرقي من المملكة على الجادة التي تجري بين قابس والقيروان بالمكان المعروف اليوم بودران .

فسادا وتخريبا ونهبا واستباحوا القيروان حتى اصبحت حاضرتها الزاهرة أثراً بعد عين .

وفاة المعز ـ وبقي المعز بالمهدية وقد استخلف على الدولة ولده تميما الى ان وافاه اجله المحتوم ـ ٢٥ شعبان سنة ٤٥٣ ـ ودفن برباط المنستير حيث مدفن ابائه . وكان المعز عادلا مستقيم السيرة رفيقا بالرعية مولعا بالبناءآت النافعة ، وكان مع ذلك في غاية من الكرم ، محبا للعلم والعلماء شاعرا حديد الذهن عارفا بعدة صناعات مكثرا مجالسة اهل الفضل حتى اعتبره المؤرخون اعظم من تولى من الصنهاجيين .

٥) تميم بن المعز ـ بويع بالمهدية بعد وفاة ابيه وضبط ما بقي من الملك احسن ضبط ، وجملة ما بقي تحت سلطته يمتد على ساحل البحر من سوسة الى قابس لا غير ، واما داخل القطر كتونس والقيروان والجريد فكان بيد امراء صغار من الاعراب وغيرهم أعلنوا الاستقلال لضعف الدولة وظهور الهرم فيها . واصبحت المملكة التونسية أشبه شيء بالاندلس على عهد ملوك الطوائف لمّا اعتصم كل زعيم بقلعة او قلعتين ، مما جعل ابن رشيق القيرواني يقول :

مما يزهدني في ارض أندلس ❀ اسمآء مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها ❀ كالهر يحكي انتفاخاً صورة الاسد

وسرى هذا الداء في القرن الخامس للهجرة الى عموم المملكة الاسلامية ، فلم تلبث أن وقعت في وهدة الانقسام وتجزأت أقطارها وظهرت فيها الامراض الاجتماعية المعهودة .

وفي ايام تميم استولى (النرمان)[١] على جزيرة صقلية - سنة ٤٨٤ - بعد ان دام فيها ملك الاسلام مائتين و بضع وسبعين عاما ، لكن معظم المسلمين من سكانها استمرّوا على الاقامة بها بعد ذلك نحو مائة وخمسين سنة - الى اوائل الدولة الحفصية - وقد دخلوا تحت ذمّة ملوك النُرمان ومن خَلَفَهم في الحكم، ثم نُقلوا جبراً الى ناحية جبلية بجنوب ايطاليا ، فانقطعوا هنالك واندمجوا في السكان ، والملك لله الواحد القهار .

وهاجم تميماً اسطولٌ من « جِنْوَة » في ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين الف مقاتل فتمكّنوا من النزول بجانب المهدية - سنة ٤٨٠ - واحرقوا وسبوا حتى اضطرّ تميم للركون الى الصلح على مال اخذوه وانصرفوا . ثم قصده بعدها اهل « رومة » في ثلاث وعشرين سفينة حربية فهزمهم وقتل كثيراً منهم فاقلعوا خائبين . وبقي تميم يدبر شئون بلاده وهي معتلة بمشاغبة الاعراب حتى توفي رجب - سنة ٥٠١ - وكان شهما صبورا على عضات الدهر جزيل العطاء عالما مجيدا ، وله شعر رقيق مدوّن .

---

(١) النرمان - او قوم الشمال - امة بحرية أصلها من النرويج والدنمرك نزلت في القرن التاسع للميلاد على أروبا الوسطى واستولت بالتدريج على قسم من فرنسا عرف باسمهم (نرمنديا) ثم انتصبت قهرا بجنوب ايطاليا وعلى الاخص بصقلية حيث أسست مملكة قوية مستقلة .

مشاهير التونسيين

الحسن بن رشيق

ابو علي الحسن بن رشيق الازدي القيرواني ، حامل لواء الادباء التونسيين . ولد بمدينة المحمدية حوالي سنة ٣٨٥ وبها تلقى علم العربية والادب ، ثم لما رأى من نفسه الميل الشديد والرغبة لطلب العلوم والاجتماع باهل الفضل ارتحل الى القيروان سنة ٤٠٦ ، فقرا على اساتذة ذلك العصر كابي عبد الله محمد بن جعفر القزاز كبير النحويين وعبد الكريم النهشلي وغيرهما ، واجتهد في اقتناء المعارف والفضائل حتى عرف ، واذ ذاك أدخله المعز الصنهاجي في زمرة جلسائه الادباء . ولم يزل الحسن يشتهر بقصائده الفائقة وتآليفه الرائقة الى ان حاز رئاسة شعراء زمانه وصار فيصلهم المعتمد . والتحق ابن رشيق بعد موت المعز بالامير تميم وخدمه باشعاره فكان له خير نديم واصدق مصاحب . وفيه يقول مادحا :

اصح واقوى ما رويناه في الندى ❁ من الخبر المأثور منذ قديم
احاديث ترويها السيول عن الحيا ❁ عن البحر عن جود الامير تميم

ثم انتقل الحسن بعد ذلك الى صقلية وسكن مدينة (مازرة) الى ان ادركته منيته ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة ٤٥٦

وهاك شذرة من نثره كتب بها الى بعض اخوانه في مدح السفر والارتحال :

« مثل الرجل القاعد ، اعزك الله كمثل الماء الراكد ، ان ترك تغير ، وان تحرك تكدر . ومثل المسافر ، كالسحاب الماطر ، هؤلاء يسمونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمه . فاذا اتصلت ايامه : ثقل مقامه ، وكثر لوامه . فاجمع لنفسك فرحة الغيبة ، وفرحة الاوبة . والسلام . وانشد :

غب عن بلادك وارج حسن مغبة ❁ ان كنت حقا تشتكي الاقلالا
فالبدر لم يجحف به ادباره ❁ ان لا يسافر يطلب الاقبالا

وقد ترك ابن رشيق مأثرة علمية ادبية جسيمة جدا فاق بها اهل عصره .

فمن تآليفه السائرة : كتاب « العمدة » في صناعة الشعر ونقده وعيوبه و « قراضة الذهب في نقد اشعار العرب » وكتاب « انموذج الزمان في شعراء القيروان » عدا ما صنفه في النحو واللغة وفن التاريخ مما تفتخر به المملكة التونسية .

---

٦) يحي بن تميم ـ تولى بعد أبيه فاحسن السيرة مع الرعية وقمع الثائرين . ثم صرف همته الى تجهيز اسطول وكأن هجوم مراكب جنوة ورومة في ايام ابيه قد نبّهه الى ذلك ، فأنشأ اسطولا عظيما غزا به بلاد الروم منها جنوة وسردانية حتى صالحه اهلها على اموال طائلة قبضها منهم وترك سبيلهم .

وكان يحي نفى الى المغرب بعضا من اخوته الطامعين في الملك فتحيل ثلاثة منهم ودخلوا عليه متنكرين في زي المغاربة وزعموا انهم من العارفين بفن الكيميا ـ وكان له لوع به ـ فاشترطوا عليه الخلوة فخلا بهم ومعه وزيره وحاجبه ، فما كان الا ان وثبوا عليه بالخناجر التي كانوا خبؤوها في ثيابهم ، فقتلوا الوزير والحاجب واثخنوا الامير بالجراح . وما زال يحيى متألما من جراحاته هذه حتى توفي ـ سنة ٥٠٩ ـ فخلفه ابنه

٧) علي بن يحي ـ تمت له البيعة بالمهدية وارسل جيشا الى (أحمد ابن خراسان) والي تونس الذي تظاهر بالعصيان فأدبه .

وفي ايامه تأكدت الوحشة بينه وبين كبير النرمانيين (رُجَار) صاحب صقلية . فاخذ علي يتأهب للوثبة وكاتب سلطان « المرابطين » يوسف بن تاشفين بمراكش ـ في مشاركته لمحاربة نصارى صقلية ، ولكن المنية عاجلته قبل ذلك ـ سنة ٥١٥ ـ فلم يتم له ما كان يرومه .

٨) الحسن بن علي — تولى بعهد من ابيه وكان عمره لا يزيد عن اثنى عشر عاماً . ولما استتب له الامر قويت النفرة التي كانت بين اسلافه وبين (رُجَار) ملك صقلية بسبب مهاجمة اسطول المرابطين على ثغر من ثغور صقلية ، فلم يشك رُجَار ان ذلك كان باغراء من الحسن ، فارسل أساطيله الى المهدية . سنة ٥١٧ . واستعد الحسن فحصّن القلاع وحشد الجيوش ونزل الافرنج بجزيرة الديماس . قرب البقالطة . المتصلة من البر فلاقاهم رجال الحسن وأثخنوا فيهم القتل حتى أرجعوهم عن أعقابهم خاسرين .

زحفة النرمان ثانيا — الا ان «رجار» اعاد الكرة . سنة ٥٣٦ . فقدم الى افريقية في ثلاثمائة مركب مشحونة بالقوات ، وقد صادف خلو المهدية من الحامية لغياب العساكر في محاربة بجهة تونس فتغلب على (سوسة) و (صفاقس) . ولما أيقن الحسن بالخطر اراد حقن دماء رعاياه الابرياء فاعلن الرحيل وحمل ما خف عليه وخرج من المهدية . سنة ٥٤٣ . فدخلها النرمان واستولوا على ما بقصورها من الذخائر النفيسة ، ثم أمّنوا الناس وأقرّوهم بمنازلهم ، وسكّنوا الثائرة ، ولم يلبث «رُجَار» أن ملك معظم الثغور فاصبحت البلاد التونسية نهباً مقسوماً بين النرمان في السواحل والاعراب في الداخل . وبذلك انقرضت الدولة الصنهاجية من افريقية ، والبقاء لله الواحد القهار .

٩ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الدولة الصنهاجية

(من سنة ٣٦٢ الى سنة ٥٤٣ هـ.)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
بُلُكّين بن زِيري	٣٦٢ ـ ٣٧٣	عود السلطة الى البربر ـ امتداد ملك صنهاجة الى المغرب الاقصى .
بَاديس بن المنصور	٣٨٦ ـ ٤٠٦	حرب قبيلة زناتة ـ استقلال حماد الصنهاجي بالمغرب الاوسط .
المُعز بن باديس	٤٠٦ ـ ٤٥٣	استبحار التمدن الافريقي وانتشاره ـ استقلال افريقية عن الفاطميين : سنة ٤٤٠ ـ زحفة بني هلال وبني سليم ـ خراب القيروان : سنة ٤٤٩ ـ انتقال تخت صنهاجة الى المهدية .
تميم بن المعز	٤٥٠ ـ ٥٠١	هجوم اسطول جنوة ورومة على المهدية ووقوع الصلح ـ خروج صقلية عن حوزة المسلمين : سنة ٤٨٤
الحسن بن علي	٥١٥ ـ ٥٤٣	الوحشة مع ملوك صقلية ـ استيلاء النرمانيين على الساحل التونسي : سنة ٥٤٣ ـ انقراض دولة صنهاجة .

٣ ـ الدّولة الموحّدية

تمهيد ـ حينما كانت افريقية تتخبّط بين الاضطرابات السياسية الحادثة من هجوم الافرنج ، وبين الهرج الداخلي الناشي عن هياج الاعراب الزاحفين على عهد المعز بن باديس ، إذ ظهرت بالمغرب الاقصى دولة ذات سلطان قوي وبأس شديد ألا وهي (دولـة الموحّدين) التي أعلا شأنها سنة ٥٢٨ ـ رجل العلم والسياسة « عبد المؤمن بن عليّ الكومي » من قبيلة زناتـة البربرية ، ولم يلبث عبد المؤمن إلا قليلا حتى استولى على المغربيْن الاقصى والاوسط ، وضمّ الى ملكه الاندلس ، فعظم بذلك سلطانه وخضعت الاقطار الى صولجانه .

قدوم عبد المؤمن ـ وفي اثنـاء تلك المدة قصده الحسن بن علي الصنهاجي مستنجداً به لانقاذ المهدية من ايدي نصارى النرمان ورغّبه في الجهاد ، فازمع عبد المؤمن على غزوها وجهز جيشا كثيفاً يربو عن المائة الف فارس ، وخرج من مراكش [١] قاصداً افريقية ـ سنة ٥٥٣ ـ فتقدم اولا الى مدينة الجزائر وفتحها عنوة ثم نـزل (بِجَاية) و (قُسنطينة) و (باجة) وغيرها من المداين الى أن أنـاخ على تونس وكانت اذ ذاك خاضعة لحكم علي بن احمد من (بني خَرَاسَان) فأرغمه على الرحيل واحتلها قهراً ـ سنة ٥٥٤ ـ وبعد ايام انصرف الى المهدية وحاصرها بجنوده برّاً وباسطوله بحراً ، وضايق على من كان بها من النرمان ، ودام الحصار متواصلا ستة أشهر الى ان اشتد

---

(١) مراكش ـ احدى قاعدتي حكومة المغرب الاقصى أسسها الامير يوسف ابن تاشفين اللمتوني سنة ٤٥٤ للهجرة .

الحال على حاميتها وطلبوا تسليم المدينة ، فاحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء ـ سنة ٥٥٥ ـ وقيل لهذا العام سنة الاخماس .

لما تمّ هذا الفتح لعبد المؤمن وصار ملكه يمتدّ من برقة الى المحيط أخذ يرتّب أعمال الجهات ، فاقطع المهدية لصاحبها الحسن الصنهاجي وشرّك احد المؤحّدين معه في النظر واستخلف على حاضرة تونس «أبا محمد عبد السلام الكومي» ونصب معه اشياخاً من الموحّدين للمشاورة في شؤون البلاد ، ثم قفل عبد المؤمن راجعاً الى المغرب حيث توفي ـ سنة ٥٥٨ ـ بمدينة (سَلَا).

خلفاء عبد المؤمن ـ قام بأمر الدولة بعد هذا الخليفة ابنه «يوسف» وكان حسن السيرة ذا سياسة صائبة . قدم افريقية ـ سنة ٥٧٥ ـ لاخضاع أحد (بني الرند) [1] الثائر بالجريد ، فحاصره يوسف بقفصة وألحّ عليه الى ان ظفر به ، ثم عاد الى مراكش ، وفي ـ سنة ٥٨٠ ـ مات يوسف وعقبه في الامر ابنه «يعقوب المنصور» وهو الذي استوزر الشيخ (ابا محمد عبد الواحد بن أبي حفص) . وأهم ما حدث بافريقية في دولته ثورة (يحي بن اسحاق الميورقي) من بني غانية [2] الذي تطاول على سلطنة الموحدين واغتصب من حكمهم طرابلس وقابس وصفاقس والجريد والقيروان وجزءاً من ولاية قسنطينة ، ثم عاد الى تونس فامتلكها ـ سنة ٥٨٦ ـ وخطب فيها للخليفة العباسي ببغداد . وقبض على كبار الموحدين وسجنهم بالقصبة ، فنهض اليه عندئذ يعقوب المنصور وكان في جيش جرّار ، فخافه يحي الميورقي وركن للفرار

---

(١) بنو الرند ـ دولة صغيرة استقلت بالجريد عند انقسام ملك صنهاجة وكانت قاعدتها مدينة قفصة .

(٢) بنو غانية ـ من بقايا المرابطين وكانوا امراء دولة صغيرة انتصبت بالجزائر الشرقية من بلاد الاندلس (وهي ميورقة ومنورقة ويابسة) اواسط القرن الخامس للهجرة

الى جهة الصحراء ، فسكّن يعقوب الثائرة ومهد النواحي ورجع الى مقرّ سلطنته بمراكش وبها كانت وفاته ـ سنة ٥٩٥ ـ

وتولى بعده ابنه « محمد » الملقب بالناصر ، قدم افريقية لما عَلِمَ رجوع يحي الميروقي اليها ، فسار في اتباعه ، وسرح الشيخ عبد الواحد بن ابي حفص بجيش لقتال الثائر فلقيه بناحية قابس واوقع به وشرد عصابته ـ سنة ٦٠٢ ـ فسكنت البلاد ورجع الناصر الى تونس ، وبعد أن أقام بها برهة رتّب في خلالها الشؤون واستخلف على افريقية ثقته وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد جد الامرآء الحفصيين ـ سنة ٦٠٣ ـ وهذه بداية الدولة الحفصية الواردة أخبارها .

انتقال التخت ـ مرَّ بنا ان الفاتحين من العرب ابتنوا (القيروان) واتخذوها عاصمة للبلاد الافريقية ، وسبب اختيارهم هذا المركز على سواه هو توسّط موقعه الجغرافي وبعده عن الساحل اذ لم يكن للدولة الاسلامية اذ ذاك أسطول يحمي قاعدتها من هجمات الروم الذين كان لهم ملك البحر . وبقيت القيروان تختا الى ان انتصب العبيديون وقوي ساعد الدولة المغربية باسطول رهيب فلم يخش حينئذ عبيد الله المهدي من جعل مدينة (المهدية) التي أسسها مقراً لسلطانه المتسع . وأقام الملك هناك الى يوم تغلب النرمان عليها . فلما دانت افريقية الى عبد المؤمن بن علي والى خلفائه من بعده استحسنوا نقل مركز الحكومة الى حاضرة (تونس) وتبعهم في الاقامة بها الحفصيون ومن والاهم من الدول . ولم تزل هذه المدينة عاصمة القطر التونسي الى يومنا هذا . ولله عاقبة الامور .

١٠ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الدولة الموحدية

(من سنة ٥٥٤ الى سنة ٦٢٦ هـ.)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
عبدالمؤمن بن علي الكومي	٥٢٨ ـ ٥٥٨	تأسيس الدولة الموحدية بالمغرب ـ فتح جيش الموحدين لافريقية ـ افتكاك المهدية من يد النرمان ـ نقل مقر الحكومة الى تونس .
يوسف بن عبد المؤمن	٥٧٥ ـ ٥٨٠	اخضاع بني الرّند المستقلين بقفصة .
المنصور بن يوسف	٥٨٠ ـ ٥٩٥	ثورة يحي الميورقي من بني غانية وامتلاكه لافريقية .
الناصر بن المنصور	٥٩٥ ـ ٦٠٣	تقهقر أمر الميورقي الثائر ـ استخلاف بني حفص بافريقية .
عبدالواحد بن ابي حفص	٦٠٣ ـ ٦١٨	تسكين الثائرة ـ ترتيب ولاية افريقية .
ابو زكرياء يحي	٦٢٦	خلع امرآء بني حفص لطاعة الموحّدين ـ امتداد سلطة الحفصيين خارج افريقية .

٤ ـ الدولة الحفصية

تمهيد ـ الحفصيون فرع من فروع الدولة الموحدية وينتسبون الى الشيخ (ابي حفص يحي بن عمر الهنتاتي) (١) وهو احد القائمين بدعوة المهدي عبد المؤمن بن علي والمشيّدين لملكه ، وفيما يزعم بنو حفص انهم من نسل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، كما ادعى امراء صنهاجة من قبلهم الانتساب الى حِمْيَر ، وكلا الفريقين من البربر ، وقد جوّز بعض المؤرخين الانتسابين . والله تعلى أعلم ٠

ومهما يكن فقد كان للشيخ ابي حفص هذا الصوت الاعلى والمقام الاسنى في دولة عبد المؤمن وابنائه من بعده . وهو الذي رفع راية الموحّدين بالاندلس وأيّد سلطانهم بتلك الاقطار ، فلما توفي سنة ٥٧١ . تداول ابناؤه الرئاسة وتقلبوا في الامارة باسبانيا والمغرب وافريقية مع سادة من بني عبد المؤمن ٠

ولما افضت الخلافة للناصر وأخمد نار الثورة التي أوقدها يحيى الميورقي كما تقدم نصب بولاية افريقية الشيخ (ابا محمد عبد الواحد الحفصي) نائباً عنه . واستتب من ذلك الحين امر البلاد التونسية بيد الولاة الحفصيين الى ان اعلنوا استقلالهم بها وانفصلوا عن المملكة الموحدية بالمغرب ٠

وقد حظيت الدولة الحفصية مدة استقلالها بعز وسلطان واتساع ملك ونفوذ لم يتسن لكثير من الدول ، الاّ أن الغالب عليها سوء الادارة لتغلب الفكر البربري على رجالها وتمدنها ، ولذا كان دورها يمثل هيئة

---

(١) هنتاتة ـ قبيلة بربرية عظيمة تلتحق بالمصامدة التي هي من اكبر قبائل المغرب الاقصى

خالدة الى التقليد ، بعيدة عن الاختراع لبعد عهدها عن الصبغة العربية والحضارة الشرقية ، بخلاف ما حصل في عصر الاغالبة وصنهاجة ، وقد سبق الالماع اليه . ولله في خلقه شؤون .

الامراء الحفصيون

١) أبو محمد عبد الواحد ـ نصبه الناصر على ولاية افريقية كما تقدم ، فجلس على كرسي الامارة بقصبة تونس ـ يوم السبت ١٠ شوال سنة ٦٠٣ ـ وبايعه الناس ، وكان فاضلا براً بالرعية متواضعا . زحف بالجنود ـ سنة ٦٠٤ ـ على ابن غانية الميورقي بنواحي طرابلس فاوقع برجاله ، و أُفلت الثائر جريحا ورجع ابو محمد الى تونس ظافرا وتأيد امره وحسم مادة الفساد من افريقية واستوفى جباياتها . ولم يزل معظما الى ان توفي ـ سنة ٦١٨ ـ ودفن داخل القصبة .

٢) عبد الرحمن ـ وبايع الملا بعده ابنه عبد الرحمن فسكن الثائرة وافاض العطاء في الجند وأجاز الشعراء ، ثم وصل كتاب سلطان الموحدين المستنصر بن الناصر يامر بعزل عبد الرحمن لثلاثة اشهر من ولايته وتقديم عمه ادريس ولم تطل مدته . فتولى بعد وفاته .

٣) عبد الله عبو ـ وهو ثاني ابناء الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص . تولى ـ سنة ٦٢٠ ـ وعقد لاخيه يحي على قابس ثم نهض لمحاربة اخيه المذكور فانكر عليه الجند ذلك وخالفه كبرآء دولته والتحقوا

بجيش قابس ، فتقدم عندئذ يحي الى الحاضرة ودخلها ـ سنة ٦٢٦ ـ بعد ان اعتقل اخاه عبد الله .

٤) ابو زكرياء يحي ـ اقتعد هذا الامير على أريكة الملك وأمر الموحّدين من بني عبد المؤمن بمراكش في تراجع وضعف وقد ظهر (بنو مَرِين) (١) ونازعوهم السلطة في المغرب الاقصى ، فانتهز أبو زكرياء الفرصة واعلن استقلاله بقطع الخطبة للموحدين وجعلها لنفسه ـ سنة ٦٢٦ ـ ولم يلق معارضا فيما فعل . إلاّ ان ابن غانية الميورقي قد عاد يجمع الجموع ويدخل بهم افريقية ويفسد فيها . فطارده أبو زكرياء حتى ظفر به وقتله ـ سنة ٦٣١ ـ ثم قمع ثوار البربر من قبيلة هَوَّارة وتم بذلك له النصاب على القطر التونسي . واستولى على « الجزائر » وبايعته « تلمسان » و « سجلماسة » و « سبتة » و « طنجة » و « مكناسة » من بلاد المغرب . فقوي أمره وعظم شانه حتى ان بني مرين الذين استولوا على مراكش بعد بني عبد المؤمن خطبوا له في اول امرهم ، وأتته الوفود من شرقي الاندلس مستنجدة به فاجاب طلبهم ووجه اسطولا لاعانتهم قُوِّم بمائة الف دينار ، ولم يقدر الله وصوله اليهم وقت الحاجة .

وأبو زكرياء هذا هو الذي ابتنى جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه ، وأذَّن فيها بنفسه ليلة تمامها ـ غرة رمضان سنة ٦٣٠ ـ وشاد غير ذلك من المساجد والمدارس وابتنى ايضا (سوق العطارين)

---

(١) بنو مرين ـ من قبائل البربر المخيّمة جنوب المغرب حيث سجلماسة . قام بدعوتهم (عبد الحق بن محيو) المريني عند ضعف دولة الموحدين اوائل القرن السابع للهجرة فاستولوا شيئا فشيئا على ما بيد بني عبد المؤمن .

بتونس وانشأ في قصره بالقصبة داراً للكتب جمع فيها ستة وثلاثين الف مجلد من انفس المؤلفات ، تلاشت في آخر ايام الدولة الحفصية كما سنراه .

وبالجملة فهو الذي اسس أركان الدولة الحفصية بتونس ، وكانت وفاته في - جمادى الاخيرة من سنة ٦٤٧ - وعمره ٤٩ عاما .

٥) المستنصر بالله - وهو أبو عبد الله محمد بن ابي زكرياء المتقدم ، بويع له يوم وفاة ابيه وعمره عشرون عاما ، وقام عليه لاول ولايته ابن عمه (محمد اللحياني) طامعا في الاستيلاء على المملكة ، فجمع المستنصر العساكر وقاتل ابن عمه وانتصر عليه .

وذاع صيت المستنصر في الآفاق وعظم شأنه حتى ارسل له امير مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة - سنة ٦٥٧ - فاهتز السلطان لهذه البيعة واحتفل بها احتفالا مشهوداً وتلقب من يومئذ بامير المؤمنين . ثم وافته بيعة بني مرين بفاس ، وهاداه ملك (برنو) [1] من السودان بهدايا نفيسة .

زحفة الفرنسيس - وأشهر الحوادث الواقعة في أيام هذا السلطان العظيم ، زحفة (لويس التاسع) ملك فرنسا الى تونس . وبيان ذلك ان (شارل دانجو) شقيق هذا الملك وصاحب جزيرة صقلية أغرى اخاه على غزو تونس لتكون تابعة له ، فلم يتردد مَلِك فرنسا في اجابة طلبه ، ولا سيما قد ظاهره على مقصده كثير من ملوك النصارى منهم (البابا) [2] فجهز لويس الملقب بالقديس اسطولا شحنه باربعين الف مقاتل نزلوا باطلال قرطاجنة - اخر ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ . و ١٢٧٠ م . - ودارت رحى

---

(١) برنو - اسم سلطنة باواسط السودان يسكنها زنوج مسلمون وقاعدتها مدينة كوكه

(٢) البابا - هو كبير الديانة الكاثوليكية المسيحية ومقره بمدينة رومة .

الحرب بينهم وبين الجنود التونسية واتصل الكفاح نحو ستة اشهر . وضاق الخناق بين الطرفين فصادف ان فشى مرض الوباء في تونس ثم تمادى الى جيش الفرنسيس فهلك به خلق عظيم من جملتهم الملك لويس في ١٠ محرم سنة ٦٦٩ الموافق لعام ١٢٧٠ ميلادي . وبذلك انتهت الحرب واقلعت الجنود الفرنسية بعد ان اغرمها المستنصر مالا اتفقوا عليه على وجه الصلح وامر السلطان المذكور من حينه بتخريب بقايا قرطاجنة لئلا تكون مطمحاً للنصارى (١) .

ومن صنائع هذا السلطان التي خلدت له الذكر الحسن اعتناؤه بانشاء المعالم الجليلة . فهو الذي رمّم الحنايا الرومانية لجلب ماء زغوان . فاجرى بعضه للبستان الذي اتخذه براس الطابية والبستان المعروف (بأبي فهر) قرب أريانة . وبعضه الى تونس وجامع الزيتونة وغير ذلك من الانشاآت .

وكانت وفاة المستنصر سنة ٦٧٥ . وتولى بعده ابنه يحيى .

تونس على عهد المستنصر — «كان شأن المستنصر هذا في ملوك آل ابي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ومدت اليه ثغور القاصية من العُدوتين (٢) يد الاعتصام به . وما اجتمع بحضرته

(١) اعتنت الحكومة الفرنسوية على عهد المشير احمد باشا الحسيني بشأن المكان الذي اصيب فيه لويس التاسع ، فبعد ان حصلت على رخصة من الحكومة التونسية أقامت كنيسة بقرطاجنة بالموضع الذي يُظَنُّ انه مات به ذلك الملك . وهذه الكنيسة ما زالت موجودة الآن وهي المشهورة (بصانت لويس) الملاصقة لمتحف الآثار العتيقة الذي انشأه القسيسون المعروفون بالاباء البيض .

(٢) المقصود بالعُدوتين هنا جزيرة الاندلس وبلاد المغرب الاقصى .

من أعلام الناس الرافدين على أبيـه . وخصوصا الاندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير متفيئين ظل ملكه ، متناغين فى اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت صوت الملك إلا في ايوانه ودولته أشد ما كانت قوة ، وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبيلا وعصابة وكثر عساكر وجندا . وكانت له في الابهة والجلال اخبار ، وفي الحروب والفتوح اثار

وفي ايامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها . وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والآنية فاستجادوها ، وتناغوا في اتخاذها وافشائها الى ان بلغت غايتها ثم رجعت من بعده ادراجها . والله مالك الامور ومصرفها (١) » .

٦) يحيى الواثق ـ تمت له البيعة يوم وفـاة والده المستنصر . وافتتح امره برفع المظالم وافاضة العطاء في الجند واصلاح المساجد وازالة كثير من الضرائب عن الناس ، وامتدحه الشعراء فاسنى جوائزهم إلا انه لم يهنأ بالملك طويلا حيث قام عليه عمه (ابو اسحاق ابراهيم) وافتك منه قسماً وافرا من الملك . فانخلع الواثق عن الامر لعمه . سنة ٦٧٨ .

٧) ابو اسحاق ابراهيم ـ هو ابن ابي زكريا يحيى الاول . قدم تونس لما تحقق شغور السلطنة ، فاستقل بها وقتل ابن أخيه يحيى المدعو بالواثق ، وفي مدة استيلائه خرج عليه بنواحي طرابلس دعي يسمى (أبو عمارة احمد بن مرزوق) ذكر انه من ابناء المستنصر فاجتمع عليه البربر وظاهروه على مقصده ، فزحف الى قابس وامتلكها . سنة ٦٨١ . ثم تقدم الى الجريد والقيروان والساحل فاطاعوه . ولم يـزل هذا الزعيم يستولى على المدائن

(١) اقتبسنا هذا الفصل من تاريخ العلامة ابن خلدون باختصار .

والحصون الى ان قرب من تونس ، فخاف السلطان على نفسه وفر امامه الى بجاية ، ودخل الدعي الحاضرة وبايعه اهلها . ولقد اساء هذا الزعيم السيرة في سكان تونس الى درجة لا تحتمل حتى تطلّب الناس امرآء البيت الحفصي وتسامعوا بخبر الامير ابي حفص عمر بمكانه من (قلعة سنان)[١] فساروا اليه وبايعوه وجمعوا له شيئا من المال والرجال ، ولما بلغ الخبر الى الدعي خرج من تونس يريد قتال ابي حفص فثار عليه عسكره ورجع مهزوما ودخلت البلاد في طاعة السلطان .

٨) المستنصر الثاني ــ وهو ابو حفص عمر بن ابي زكرياء . دخل تونس وانتصب على سرير الملك واعاد بيعته ثانيا . سنة ٦٨٣ . وبعد ايام عثر على الدعي ابي عمارة مختفيا فقتله واستراح منه ، وفي السنة نفسها خرج عليه بالجزائر ابن عمه (يحي بن ابراهيم) والتفت عليه الاعراب وانضمت اليه بجاية وقسنطينة وبسكرة ، وبسبب ذلك انقسمت المملكة الحفصية الى شرقية وغربية وانفرد كل قسم بسلطان ، فاستقر أبو حفص بتونس ويحي ببجاية . واستمرت كل ناحية على استقلالها الى ان توفي ابو حفص . سنة ٦٩٤ .

٩) أبو عصيدة محمد ــ لما مات ابو حفص اجتمع اهل الدولة وبايعوا (أبا عبد الله محمد بن الواثق) الملقب بابي عصيدة ، نهض يحاول ارجاع اعمال قسنطينة فلم ينجح ، وعاد الى الحاضرة . سنة ٦٩٥ . ثم انعقد الصلح بينه وبين صاحب المملكة الحفصية الغربية على اتحاد المملكتين وأن من

(١) قلعة سنان ــ قرية مرتفعة جداً بعمل تاجروين قريبة من تالة ، مشهورة اليوم بكثرة ما باراضيها من مناجم الفسفاط .

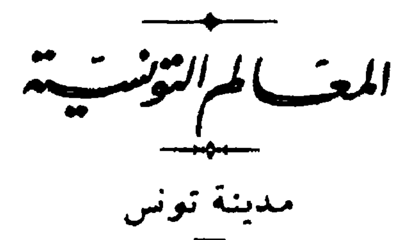
عاش من السلطانين بعد الاخر يكون المستقل بالامر فتقررت الهدنة بينهما على هذا الشرط. وفي سنة ٧٠٩ توفي السلطان ابو عصيدة ولم يخلف ولدا.

١٠) ابو بكر الشهيد ـ مات ابو عصيدة عن غير عقب وكان الواجب مبايعة « ابي البقاء خالد بن يحي » صاحب بجاية والثغور الغربية كنص الاتفاق السابق، لكن قام « أبو بكر خالد بن عبد الرحمن » الحفصي الذي كان تربّى في بيت ابي عصيدة وأخذ البيعة من اهل تونس لنفسه. فلما بلغ السلطان ابا البقاء الخبر زحف في جموعه ودخل الحاضرة وتمت له البيعة بها، وقتل أبا بكر لسبعة عشر يوما من ولايته ولذلك سمي بالشهيد.

١١) ابو البقاء خالد ـ تولى بالحاضرة ولقب « بالناصر لدين الله » وعقد لاخيه ابي بكر على قسنطينة وعملها فانتقض عنه أخوه مع عصابة، فارتاب السلطان ابو البقاء لذلك وجهز عسكرا انتهى الى باجة وفي هذه الاثناء كان (ابو يحي زكرياء بن احمد اللحياني) قد رجع من المشرق ودخل طرابلس وعلم ما بافريقية من الاضطرابات فدعا لنفسه وبايعه العرب. ثم طمع في تونس فزحف اليها وأمتلكها بعد قليل لخلع صاحبها ابي البقاء نفسه سنة ٧١١ ـ واما اخوه ابو بكر فانه بقي مستقلا بالناحية الغربية.

١٢) زكرياء بن اللحياني ـ بويع أبو يحي هذا على كبر منه وكان يرى من نفسه العجز عن الولاية واستحقاقها، خصوصا لاستفحال أمر قريبه السلطان « ابي بكر » صاحب عمل قسنطينة، وكان يخاف زحفه اليه فعزم التخلي عن الولاية، فجمع ما لديه من الاموال والذخائر وباع ما بمستودعات الحفصيين من النفائس حتى الكتب التي كان اقتناها ابو زكرياء

الاكبر . وخرج من تونس الى قابس . سنة ٧١٧ . ثم انتهى الى طرابلس واستوطنها .



مدينة تونس

« مدينة تونس مطمح الامال ، ومصب كل برق ومحط الرحال ، من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل البرين في سلك ، فان شئت أصحرتَ في موكب ، وأن شئت ابحرت في مركب ، كانها ملك والارباض لها اكليل ، وارجآؤها روضة باكرتها ريح بليل .

« وهذه المدينة ـ كلاها الله ـ من المدن العجيبة الغريبة ، وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان ، والرخام كثير بها ، واكثر ابواب ديارها معمول منه ، عضائد وعتباً ، وجلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها ابواب عديدة ، وعند كل باب منها رَبَض متسع على قدر البلد المستقل ، ولو اتفق أن يكون بها مآء جارٍ لكانت معدومة النظير شرقا وغربا ، لكن مآؤها قليل ، وفي ديارها مصانع لمآء المطر .

« واما الساقية المجاوبة من ناحية (زغوان) فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه ، الا رشحاً يسيراً سرب الى سقاية جامع الزيتونة يترشف منها في أنابيب من رصاص ، ويستقي منها الغربآء ومن ليس في بيته مآء .

و (جامع الزيتونة) من احسن الجوامع واتقنها واكثرها إشراقاً ، ودائرة مسقف ، ووسطه فضآء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجُدر ، وشُدّت اليها حِبال متينة في حلَق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدّاً محكما ، فاذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شُقق الكتّان المطبقة الموصولة حتى تظلّل جميع الفضاء [الصحن] ، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف » .

(من رحلة العَبْدَري ـ سنة ٦٨٨ هـ.)

١٣) محمد أبو ضربة ـ هو ابن السلطان المتقدم أجلسه رجال الدولة على كرسي المملكة بعد خروج ابيه فتلقب « بالمنتصر » . ولم تطل مدته حيث زحف اليه الامير (أبو بكر) من قسنطينة في جيش كثيف والتقاه أبو ضربة في جموعه ، وبعد قتال انهزم ابو ضربة ـ سنة ٧١٨ ـ وهرب من المعركة الى ابيه بطرابلس .

١٤) ابو بكر الثاني ـ ويلقب « بالمتوكل على الله » تمّ له الاستيلاء على تونس حين اطرد منها محمد أبا ضربة ، وثار عليه اعرابي يدعى « محمد بن أبي عِمران » فحاربه السطان مدة سنين الى ان تأيد أمره أخيراً وشرّد الثائرين الى كل ناحية ـ سنة ٧٢٣ ـ ثم ان بعض اقاربه من الحفصيين منهم ابراهيم بن ابي بكر الشهيد السالف ذكره استمدوا بقوة عظيمة من امير بني عبد الواد (١) صاحب تلمسان ونازلوا تونس فتجهز لهم ابو بكر وقاتلهم فكانت الدائرة عليه والتجأ الى قسنطينة ـ سنة ٧٢٥ ـ ونهض بعد ذلك يحاول ارتجاع ملكه فلم يقدر ورجع الى الناحية الغربية وقد ضاق هذا السلطان ذرعا من بني عبد الواد لدوام اتحادهم مع اعدائه ، وتحقق انه لا يثبت ملكه إلا اذا اضعفهم فسعى في الاتحاد مع سلطان بني مرين صاحب مراكش ومصاهرته ، ولما تم له ذلك اتفق مع صهره على مهاجمة بني عبد الواد وبعد قليل اغتصبا ملك تلمسان واقتسماه بينهما ـ سنة ٧٣٠ . واستراح ابو بكر من القلاقل ورجع الى حضرته : واستمر الحال

---

(١) بنو عبد الواد ـ ويعرفون ايضا (ببني زيان) دولة استقلت بالمغرب الاوسط وهو بلاد الجزائر الان عند ضعف الموحدين وكانت قاعدتها مدينة (تلمسان) ودامت الدولة الزيانية من سنة ٦٣٣ الى سنة ٩٣٢ هجرية .

على ذلك الى ان توفي السلطان ابو بكر - سنة ٧٤٧ - وهو من مشاهير الدولة الحفصية .

تقدم الحاضرة التونسية - وجه هذا السلطان اهتمامه الى اصلاح داخلية البلاد التي كادت تخرب لتوالي الفتن ، فاعتنى بشأن الفلاحة والصناعة والعلوم بمقدار ما في الامكان ، فعاد الى البلاد شيء من رونقها في مدة قريبة . يروى ان عدد دكاكين العطارين بلغ في ايامه الى سبعمائة دكان وهذا بفضل ما بذله من الاعتناء بترقية الصناعة والتجارة .

وكان في عصره من الفقهاء الاجلاء مـا أكّد سمعة تونس العلمية وأيّد شهرتها ، نخصّ منهم بالذكر : قاضي الجماعة (محمد بن عبد السلام) صاحب التآليف الجليلة المتوفي - سنة ٧٤٩ - والامام (محمد بن عرفة) والعلامة (محمد بن راشد القفصي) المتوفي - سنة ٧٣٦ - والقاضي (ابراهيم بن عبد الرفيع) المتوفي - سنة ٧٣٣ - والمدرس الكبير (محمد بن هـارون) المتوفي - سنة ٧٥٠ - وغيرهم من الاعلام .

كما ازدان ذلك العصر بثلـة كبيرة من الادباء والشعرآء ، فمن اشهرهم : (عبد الله بن محمد التجاني) رئيس كتبة الامير زكريـاء اللحياني ورفيقه في اسفاره ، وهو مؤلف « الرحلة » المشهورة باسمه ، وقد ذكر فيها انحآء القطر التونسي ومُدنه وقراه باحسن وصف واكمل تحقيق ، وتوفي في حدود ٧٢٥ ، وبيت (التجاني) هذا كان من انبه بيوت العلم والادب في تونس ، وانبت غير واحد من الفضلاء مثل شقيقه ابي العباس احمد ، وابن عمه ابي الفضل محمد بن علي التجاني والكاتبة الشاعرة « زينب بنت ابراهيم التجاني » وسواهم كثير .

ومن الادبـاء المعاصرين : « محمد بن عمر المليكشي » رئيس ديوان الانشآء المتوفي - سنة ٧٤٠ - وكان صديقا لابن الخطيب السلماني ، و « محمد بن عبد الله الهواري » و « اسحاق بن حسينة » و « احمد بن عبد الله الرُّصافي » و « محمد بن رأس الحجلة » وكلهم من مشاهير حملـة الاقلام في الدواوين الحفصية . ولـكل واحد منهم اشعار مدوّنة في اغراض متنوعة .

مشاهير التونسيين

الامام ابن عرفة

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة ، أحد اعلام المذهب المالكي بالقطر الافريقي ، ولد هذا الحبر التونسي سنة ٧١٦ - واصله من قبيلة ورْغمَّة القاطنة بالجنوب التونسي واليها ينسب ، واقبل على درس العلوم الدينية بجامع الزيتونة الاعظم ، فقرأ على الشيخ محمد بن سلامة ومحمد بن عبد السلام وغيرهما حتى برع في العربية والفقه واصوله والقراآت والفرائض فاتقنها ، واشتهر بالجد والاجتهاد وملازمة جلّة الشيوخ ، ثم تقدم الى الرتب الشرعية فتولى إمامة جامع الزيتونة سنة ٧٧٢ - قلّده اياه السلطان ابو العباس احمد ، ثم ترقى الى خطة الافتاء بالمملكة الحفصية ، وقد شاع ذكره وذاع صيت علمه . قيل ان الفتايا كانت تاتي اليه من مسيرة شهر . وكان راسا في العبادة والزهد والورع ، انتفع به في العلوم خلق كثير من المغرب والمشرق . وتوفي رحمه الله في ٢٤ جمادى الاخرة سنة ٨٠٣ - ودفن بجبل الزَّلاَّج وقبره مشهور .

وله رحمة الله عليه عدة تآليف منها مختصر في الفقه مشهور باسمه و « المبسوط » في الاصول ومختصر في علم الكلام وغير ذلك من المصنفات المفيدة .

١٥) ابو حفص الثاني – لما توفي أبو بكر جمع الحاجب (محمد بن تَافْرَاجِّين) رجال الدولة واخذ عليهم البيعة للامير (أبي حفص عمر) ابن السلطان ابي بكر المتقدم فتولى بالحاضرة . وكان اخوه أبو العباس عاملا على الجريد فلما بلغه خبر وفاة ابيه وما كان من بيعة اخيه ، دعا العرب الى مظاهرته فاجابوه ونزعوا الى طاعته ، فزحف بهم الى جهة تونس وخرج أبو حفص في عسكره لملاقاته ، فلما تقابل الجمعان نكص الحاجب ابن تافراجين راجعا الى الحاضرة ، ثم التحق بالسلطان (ابي الحسن المريني) صاحب المغربين الاوسط والاقصى .

وثوب المريني – وكان أبو الحسن هذا يترقب الفرص منذ استولى ليملك افريقية ، فانتهز فرصة الفتن الواقعة بين امرآء بني حفص وعزم على اغتصاب السلطة من أيديهم ، لاسيما وقد قوي عزمه بقدوم ابن تَافْرَاجِّين فجهّز العساكر وخرج يقودهم . سنة ٧٤٨ . وسار الى قسنطينة وقبض على من فيها من الامرآء الحفصيين وشردهم الى المغرب ، ثم قصد الحاضرة ففرّ عنها السلطان ابو حفص فلحقه وقتله .

واستولى ابو الحسن المريني على تونس واستتب له ملك افريقية برهة من الزمان غير انه لم يحسن السياسة مع العرب الذين كان لهم في الدولة الحفصية نفوذ عظيم ومكانة كبرى ، فانه ضرب عن ايديهم بعصا من حديد وعبث بحقوقهم ، فأنفت نفوسهم هذه المعاملة وأصرّوا على الثورة ، خصوصا وقد داخلهم محمد بن تافراجّين اذ لم يجد عند السلطان المريني ما كان يؤمله . فاتفقوا على زعيم منهم وزحفوا الى القيروان فالتقاهم ابو الحسن وبعد قتال عنيف اختلت صفوف السلطان وانهزم هزيمة شنعاء

ـ سنة ٧٥٠ ـ ولم يفده إلاّ الهروب الى مراكش . فكانت اقامته بافريقية عامين ونصفا •

اما الحاجب ابن تافراجين فانه تخلص الى المشرق مظهرا للورع واداء فريضة الحج •

١٦) الفضل بن أبي بكر ـ كان هذا الامير متوليا على (عنابة) فلما ارتحل المريني كما مر دخل تونس فبايعه اهلها وأعاد ما ذهب من سلطان بني حفص ، ثم ان ابن تافراجين رجع من الحج فطلب من السلطان ارجاعه لخطة الحجابة فامتنع الفضل . واذ ذاك دبّر هذا الحاجب في مكيدة للايقاع بالسلطان ، فانه عمد الى اخيه (ابي اسحاق ابراهيم) بن ابي بكر وجاء به الى القصبة وأقعده على كرسي المملكة وحمل الناس على مبايعته وهو يومئذ غلام ، وسيق اليه أخوه الفضل فامر بقتله ـ سنة ٧٥١ ـ

١٧) أبو اسحاق ابراهيم ـ بويع هذا الامير على صغر سنه وكان المستبد على امور المملكة هو حاجبه ابن تافرجين ، فلم يكن للسلطان معه الا مجرد الاسم . ونقم عليه الامراء من بني حفص واستولى كل واحد منهم على عمالة ، ودامت الحال على ذلك بين فتنة وهدنة مع بني مرين من جهة ومع اقاربه والاعراب من جهة اخرى الى ان توفي ابن تافراجين ـ سنة ٧٦٦ ـ ودفن بمدرسته قرب (حوانيت عاشور) . فاستراح منه القطر وسكنت القلاقل نوعا . وتوفي ابو اسحاق ـ سنة ٧٧٠ ـ فتولى بعده ابنه •

١٨) خالد الثاني ـ قام بالامر وهو لا يتجاوز الحلم فاستبدت عليه حاشيته واساءوا السيرة . وكان أمر السلطان (ابي العباس احمد) قد

عظم في قسنطينة واعمالها فلما علم بوفاة عمه ابي اسحاق جد السير الى الحاضرة فامتلكها بلا كثير عناء ـ سنة ٧٧٢ ـ وخلع خالدا .

١٩) ابو العباس احمد ـ لما استقل هذا السلطان بامر افريقية شمر عن ساعد الجد فاوقع بالاعراب المتغلبين على اعمال المملكة ، وفي مدة يسيرة استرجع سائر الاقطار التي كانت اخذت من الدولة اثناء الفتن مثل سوسة والمهدية وجربة وقابس والجريد وغيرها ، وبعد ان استعادها اهتم بالاصلاح وانماء موارد الرزق ، فاينعت البلاد وساد الامن وعمّ العدل . وعلى عهده حاول الافرنُج من اهل (جِنوة) و (البُنْدقِية) منازلة المهدية باساطيلهم فسيّر السلطان لهم جيشا عظيما أرجعهم عن اعقابهم خاسرين .

وتوفي ابو العباس ـ سنة ٧٩٦ ـ بعد ان دعّم لابنه أركان المملكة الحفصية وأعاد لها مهابتها وسطوتها

٢٠) أبو فارس عزوز ـ هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية ، سار بعدل وتدبير وسياسة ، فازدهت افريقية في ايامه وبلغت شاواً بعيدا في الثروة والعمران

افتتح ولايته بتمهيد النواحي القاصية ، فاخضع الجريد وقابس وطرابلس والصحراء . وكانت الاعراب ـ وخصوصا (بنو سُلَيْم)[1] منهم ـ قد اعتادوا الثورات لما في ذلك من الفائدة لهم والغنيمة ، فلما أخضد أبو فارس شوكتهم استصرخ بعضهم بسلطان فاس من بني مرين ، فعاضدهم بعساكر وسيّر معهم أقواماً فلما ، بلغوا بجاية انضم اليهم الامير الحفصي

(١) بنو سُلَيْم ـ قبيلة عظيمة من الاعراب النازحين لافريقية مع بني هلال على عهد المعز بن باديس .

«ابو عبد الله محمد بن ابي زكرياء» وقصدوا تونس، فخرج اذ ذاك أبو فارس لملاقاتهم واوقع بهم - سنة ٨١٢ - وقتل ابن عمه ابا عبد الله الثائر. وعقب ذلك تحرك أبو فارس الى جهة المغرب لاخذ الثار من السلطان المريني فاستولى على «تلمسان» ثم قصد مدينة فاس، فحين شارفها جنح صاحبها المريني الى السلم، فقبل منه ابو فارس وقفل راجعاً الى حاضرته، ولحقته في طريقه بيعة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس وصار شمال افريقية كله تحت طاعته وفي قبضة يده. ولم يزل أبو فارس مؤيداً منصوراً الى ان فجأته الوفاة يوم عيد الاضحى - سنة ٨٣٧ -

ومن وفاته أخذت الدولة الحفصية في التراجع والتدليّ ولم تقم لها بعده قائمة لسوء تدبير خلفائه

والسبب في علو كعب ابي فارس وبُعْد صيته هو ان هذا السلطان درى كيف يسوس الملك وسعى كل مدته في توطيد الراحة، فبانتشار العدل والامن اقبلت الرعية مطمأنةً على العمل، وبذلك نمت الثروة العمومية، وارتفعت مداخيل الدولة حتى ان جباية المكوس بمدينة تونس وحدها زادت على الخمسمائة الف فرنك ذهبا وهو مبلغ جسيم بالنسبة للوقت. مع انه ابطل كثيرا من الضرائب والمجابي الفادحة التي كان يدفعها السكان ظلماً

زيادة على ذلك فان لهذا الامير اعمالا جليلة منها انشاء جملة قِلاعٍ ومقاعل لحراسة الثغور كمحرس (راس أدَار) و (الحمّامات) و (رَفْراف). ومنها اقامة خزانة الكتب التي بشمال جامع الزيتونة وقد اوقف عليها آلافا من المجلدات. ومنها احداث سقايا و «مَرِستان» بالحاضرة للمرضى والضعفاء العجّز

وقد ازدان عصره ايضا بوجود علماء افاضل مثل الشيخ (محمد بن عمر الأُبِّي) شارح المدونة ، والقاضي (عيسى الغُبْريني) والمفتي (ابي القاسم البِرْزَالي) . والمدرس (محمد القَلشاني) والعلامة الكبير والمؤرخ الشهير (عبد الرحمن بن خلدون) وغيرهم .

مشاهير التونسيين

ابن خلدون

ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي التونسي العلامة الفيلسوف والمؤرخ الشهير . ولد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ وربي في حجر والده . ثم قرأ على اساتذة عصره فاتقن العربية وتضلع في الفنون والادب والتاريخ حتى صار من أعلم رجال زمانه ، ثم تقدّم للمراتب الدولية فتقلد خطة الكتابة للسلطان ابي اسحاق ابراهيم الحفصي . وهو حدث السن لم يطرأ شاربه ثم التحق بالسلطان أبي عنان المريني بفاس فنظمه في رجال دولته سنة ٧٥٥ . ولما مات ابو عنان استعمله خليفته على كتابة سره ، فقام بوظيفته أحسن قيام ، ثم قصد ابن خلدون الاندلس وانزله سلطانها من بني الاحمر بغرناطة في قصره وأكرمه غاية الاكرام ، وقد اختص به في تلك المدة الوزير لسان الدين ابن الخطيب اختصاص الاخ باخيه ، ثم سار سنة ٧٦٥ . الى صاحب قشتالة من ملوك اسبانيا لاتمام عقد الصلح بينه وبين سلطان المغرب بهدية فاخرة فلقيه باشبيلية وعامله بالكرامة الفائقة حتى انه طلبه للمقام عنده . فامتنع وارد الرحلة فزوده بهدايا ثمينة ورجع الى غرناطة . وبعد برهة قصد صاحب بجاية بافريقية فاحتفل به سلطانها وقلده اعمال دولته ، ولم يزل مؤرخنا ينتقل بالبلاد المغربية من بلاد أمير الى اخر وكل سلطان يحل عنده يكرم مثواه ويعظم شانه ويكلفه بمهمات ملكه ، الى ان نزل باهله في (قلعة بني سلامة) من بلاد بني توجين بالمغرب الاوسط سنة ٧٧٦ . فاقام

بها اربع سنين متخليا عن الشواغل . وهناك شرع في تالف تاريخه الجليل فاكمل « المقدمة » على ذلك الاسلوب البديع الذي اداه اليه صفاء فكرته وذهنه الوقاد فجاءت بدعة بين المصنفات ومخالفة بنسقها لبقية تاريخه .

ثم اشتاقت نفسه الى مطالعة الكتب وأراد التصحيح والتنقيح ، فارتحل الى تونس سنة ٧٨٠ حيث قرر آباؤه مساكنهم وآثارهم وقبورهم ، فاستدناه سلطانها ابو العباس احمد الحفصي من مجلسه واختصه لاسراره فنص بطانته من ذلك واخذوا في السعاية ولم تنجح مساعيهم ، وكان السلطان مع ذلك معرضا عنهم وكلفه باتمام تأليفه النفيس فاكمل منه مؤرخنا ماتيسر له ، ورفع اول نسخة منه الى خزانة السلطان ، ثم قصد ابن خلدون مصر سنة ٧٨٤ - فنزل بالاسكندرية والقاهرة وبها أخذ بث العلم ، فانهالت عليه الطلبة من كل فج ، وجلس للتدريس في الجامع الازهر ، وقد اتصل شأنه بسلطان مصر برقوق فاكرمه وأحسن مثواه ، ثم ولاه قاضي قضاة المالكية بالقطر المصري سنة ٧٨٦ ، فقام بوظيفته أحسن قيام ، وعدل في القضاء وانصف المظلوم من الظالم وسد أبواب الفساد . وفي ذلك الوقت وصل أهله من المغرب فقبل ان يرسوا اصاب السفينة ريح شديدة أغرقتها فذهب كل ما فيها وغرق اهله وولده فكان ذلك من اكبر المصائب التي أقتحمها مؤلفنا ، وتخلى بعدها عن القضاء وانعكف على التدريس والتاليف . وخرج للحج سنة ٧٨٩ ، فقضى فريضته ثم عاد الى مصر وبقي بالقاهرة منقطعا للعلم الى ان طرقه اجله المحتوم سنة ٨٠٨ للهجرة رحمه الله تعالى ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر من القاهرة .

وهذا الامام الفاضل هو مؤلف التاريخ الجليل الكبير الحجم والفائدة الذي جمع فيه أخباراً لم يقدر عليها سواه وهو المعروف بكتاب « العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر » وقسمه الى مقدمة وثلاثة اقسام . فاما المقدمة فهي من أجل وأنفع الكتب لما فيها من الفلسفة العمرانية ، والارآء الاجتماعية وقد ترجمت الى غالب اللغات الافرنجية وغيرها نظراً لاهميتها الكبرى .

وحيث كان ابن خلدون ممن انبتتهم التربة التونسية فيحق لابنآء هذا القطر ان يتباهوا بمؤرخهم الجهبذ الذي خلد لتونس ذكراً ، وكسا سمعتها مجدا وفخرا .

٢١) محمد المنتصر ـ تولى بعد جدّه أبي فارس عبد العزيز ولم يلبث في الولاية إلاّ عاما وشهرين كانت كلها حروبا وهرجا مع الاعراب. ومن مآثره انشآء المدرسة المعروفة «بالمنتصرية» الكائنة بسوق الفلقة من حاضرة تونس، وبنآء زاوية الولي الصالح سيدي احمد بن عروس، وتوفي ـ سنة ٨٣٩ ـ فبويع بعده أخوه.

٢٢) أبو عمر عثمان ـ كان شجاعا حازما محبا للعلماء، وكانت امه من علوج النصارى اسمها (مارية) فلما تولى وفد عليه اخواله واقاربه لتهنئته فاسكنهم بالربض الملاصق للقصبة فعرف من يومئذ (بحومة العلوج)، وثارت عليه الاعراب مراراً فاوقع بهم. وخالفته تلمسان فخرج اليها وامتلكها ـ سنة ٨٨٠ ـ وهدم اسوارها ووصل في حركته هذه الى بلاد «ريغ» و«ورقلا» من الصحراء الجزائرية واستأمن اهلها. وفي ايامه فشى بتونس وبآء جارف ـ سنة ٨٧٣ ـ بلغ من مات به في اليوم اربعة عشر الفا على ما قيل. وتوفي هذا السلطان سنة ٨٩٣ عن سن عالية. فتولى حفيده.

٢٣) أبو زكرياء الثالث ـ لم يحدث في مدته القصيرة ما يستحق الذكر سوى ظهور طاعون فتاك مات به خلق كثير منهم هذا السلطان ـ سنة ٨٩٩ ـ فبويع ابن اخيه.

٢٤) أبو عبد الله محمد ـ تولى الملك وأمرُ بني حفص في ضعف وتراجع حتى ان غالب ارجآء المملكة خرجت عن حكمه لعجز الدولة وهرمها على حين قويت شوكة الخلافة الاسلامية في المشرق بظهور دولة «آل عثمان» واستفحال أمرها باروبا لا سيما على عهد السلطان محمد الثاني فاتح

القسطنطينية - سنة ٨٥٧ هـ. و ١٤٥٣ م. - والسلطان سليم الاول المتولي لذلك الوقت •

خير الدين وعروج - وفي ايـام الامير أبي عبد الله هذا ظهر الاخوان « خير الدين » و « عروج » واصلهما من جزيرة (مِدِلّلي) احدى جزائر بحر الارخبيل • وكانا يشتغلان بالقرصنة [1] في البحر الابيض المتوسط ، فقدمَا في بعض المرات على الامير الحفصي واتفقا معه على غزو البحر ويكون له الخمس من الغنائم الحاصلة . واستمر الحال على ذلك مدة ، ثم ان خير الدين وعروج افتكا مدينة (الجزائر) من أيدي الاسبانيول وجعلاها مركزا مستقلا لعمارتهما البحرية ، فقويت بذلك شوكتهما وعلا صيتهما شرقا وغربا •

وفي تلك الاثناء توفي الامير ابو عبد الله الحفصي - سنة ٩٣٢ - وكان فطنا محبا للخير مكرما لاهله ، وهو الذي انشأ مكتبة جامع الزيتونة المشهورة « بالعبدلية » نسبة اليه . وتولى بعده ابنه •

٢٥) الحسن بن ابي عبد الله - سار في اول مدته بعدل واحسان ، فالتفت عليه قلوب الرعية ثم نكص الى سوء السيرة فاضطربت الاحوال وخرجت البلاد عن طاعته شيئا فشيئا وقوي نفوذ العرب •

---

(١) القرصنة - لفظ أعجمي دخيل في لغة شمال افريقية ويطلق على الغارات البحرية التي كان ياتيها رجال البحر في العصر الماضي •

١١ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في مدة الدولة الحفصية

(من سنة ٦٢٦ الى سنة ٩٣٢ هـ.)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
ابو زكرياء يحي	٦٢٦ ـ ٦٤٧	استقلال بني حفص بافريقية ـ نجدة ملوك الاندلس.
المنتصر بالله الاول	٦٤٧ ـ ٦٧٥	بيعة الحرمين لسلطان تونس : سنة ٦٥٧ ـ تلقب بني حفص بامرآء المؤمنين ـ زحفة الفرنسيس على تونس : ٦٦٨
المنتصر بالله الثاني	٦٨٣ ـ ٦٩٤	انقسام المملكة الحفصية الى شرقية وغربية.
المتوكل على الله	٧١٨ ـ ٧٤٧	تدخّل بني عبد الواد في شؤون افريقية وتقدم الحضارة بتونس.
ابو حفص الثاني	٧٤٨	وثوب ابي الحسن السلطان المريني على تونس باستدعاء الوزير ابن تافراجين.
ابو العباس احمد	٧٧٢ ـ ٧٩٦	استرجاع الولايات الخارجة عن السلطة الحفصية.
ابو فارس عزوز	٧٩٦ ـ ٨٣٧	الايقاع بالاعراب الثائرين ـ الاستيلاء على المغرب الاوسط والاقصى ـ انشاء عدة معالم.
ابو عمر عثمان	٨٣٩ ـ ٨٩٣	امتداد السلطة الحفصية الى الصحراء.
ابو عبد الله محمد	٨٩٩ ـ ٩٣٢	تراجع امر الحفصيين ـ ظهور السلطة العثمانية بآسيا واروبا ـ قدوم خير الدين وعروج لشمال افريقية.

قدوم خير الدين ـ علم خير الدين باشا ما آلت اليه مملكة الحفصيين من الهرم والاضطراب فعزم على امتلاكها وربما كان ذلك بايعاز من السلطان سليمان القانوني . فخرج من الجزائر في جيش من الاتراك واستولى على بنزرت ، وبلغ الخبر للحسن الحفصي فهرب من الحاضرة لما كان يتوقعه من الهزيمة فدخل خير الدين تونس . سنة ٩٣٥ . وخطب بها للسلطان العثماني وسكن الثائرة وأمن الناس فاستتب له بها الامر .

ثم ان الحسن الحفصي داخل الاعراب في القيام على خير الدين باشا فاجابوه واجتمعوا لقتاله ، فخرج اليهم خير الدين وانكى فيهم بمقذوفات المدافع التي لم يعهدوها من قبل حتى طلبوا الامن فأمّنهم .

الحماية الاسبانية ـ ولما أيس الحسن من نصرة الاعراب توجه الى اسبانيا مستنجداً بملكها (شارلكان) (١) فاجاب نداءه وجهز عمارة قوية قادها بنفسه فنزل على « حلق الوادي » ومنها زحف الى الحاضرة فدخلها . سنة ٩٤٢ (١٥٥٣) . وامر جيوشه بنهب المدينة ، فاستباحوها بالقتل والاسر والسبي حتى قيل ان عدد سكان تونس كان مائة وثمانين الفا قتل منه الثلث واسر الثلث ونجا الثلث . ومن افضع ما ارتكبه عساكر الاسبان ان هجموا على جامع الزيتونة وبدّدوا ما كان يوجد به من نفائس المخطوطات في المكتبة « العبدليّة » فاصبحت أثراً بعد عين .

ونصب شارلكان الحسن على كرسي الحفصيين وشرّك معه في النظر احد قواد العساكر الاسبانية .

---

(١) شارلكان ـ او كرلوس الخامس من اعظم ملوك اسبانيا تولى من سنة ١٥١٦ الى سنة ١٥٥٨ م. وكان ملكه يشمل اسبانيا والمانية والنمسا وهولاندا وايطاليا واميريكا باجمعها

امـا خير الدين باشا فانه لمـا راى نزول النصارى بحلق الوادي حاول المدافعة بجنوده ، فلما لم ينجح الوى عنانه قاصدا الجزائر وترك تونس لصاحبها وللمحتلين الطغاة ٠

ثم ان شارلكان قبل مبارحته للحاضرة أمضى معاهدة مع الحسن الحفصي بتاريخ ـ ٦ صفر سنة ٩٤٢ ـ تقتضي الترخيص للاسبانيول بسكنى جميع انحاء القطر واقـامة طقوس دينهم والتنازل لهم عن مدائن « عنابة ، و بنزرت ، وحلق الوادي » وان يدفع الحسن جباية سنويـة قدرها اثنا عشر الف دوكة (١) وغير ذلك من الشروط التي اعتاد الاقوياء اشتراطها على الضعفاء ، فتحمل مضطراً وعاد شارلكان الى بلاده . بيد ان هذه الشروط المجحفة لم ترق في اعين السكان الذين اتحدوا مع « ابي العباس احمد ـ ويسمّى حميده ـ بن الحسن الحفصي » صاحب عنابة وقدموا معه الى الحاضرة وافتتحوها عنوة بعد قتال عنيف وامسكوا الحسن وسملوا عينيه ، ولكنه فر وهو أعمى ومات بالقيروان وقيل باروبا ـ سنة ٩٤٢ ـ واستتب الامر لابنه ٠

٣٦) ابو العباس الثاني ـ لم يكن هذا الامير بسيء السيرة غير ان تداعي الدولة الحفصية للسقوط وتمكّن الاسبـان من البلاد منعاه من تدارك الامور . ففي مدته استولت عساكر اسبانيا على ثغر المهدية والمنستير وعلى جزيرة جربة ومدينة طرابلس وتحصنوا بهذه الامـاكن وظلوا بها زمنا حتى افتكها منهم (درغوث باشا) في خبر طويل ـ سنة ٩٥٨ ـ وتقدم هذا القـائد بعد ذلك الى القيروان بدعوة من اهلها فـازاح عنها

---

(١) الدوكة ـ نوع من النقود الاسبانية قيمة الواحدة من العشرة الى الاثني عشر فرنكا ذهباً ٠

سيادة بني حفص الاسمية. ونصب بها واليا « حيدر باشا » ثم رجع الى غزواته البحرية (١)

قدوم علي باشا ـ رأينا ان خير الدين كان اتخذ ثغر الجزائر مركزا لعمارته البحرية ثم انه ألحق قسما من البلاد الجزائرية بالممالك العثمانية فصارت ولاية تركية يتولاها مندوب من طرف (الباب العالي) (٢) فلما توفي خير الدين تعين مكانه « علي باشا » . وكان هذا الوالي يراقب احوال المملكة الحفصية حتى وفد عليه احد وزراء الامير ابي العباس وحرضه على امتلاك تونس ، فجهز علي باشا جيشا وقصدها ولقيه الامير الحفصي بباجة وبعد قتال انخذل ابو العباس وتقدم علي باشا الى الحاضرة فاستحوذ عليها ـ سنة ٩٧٧ ـ واخذ البيعة للسلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني ورتب حراسة البلاد ثم عاد الى الجزائر .

اما ابو العباس الحفصي فانه لما راى زوال ملكه استنجد بملك اسبانيا بعد ما كان معاديا له والتزم بأداء مبلغ جسيم من المال ، فارسل له الاسبان اسطولا عظيما لاعانته على الاتراك . فلما ارسى هذا الاسطول على حلق الوادي استظهر قائده بمكتوب من حكومته يقتضي ضرب الحماية على البلاد والمقاسمة في الحكم والجباية . فانكر ابو العباس ذلك وانفت نفسه

---

(١) درغوث باشا ـ واسمه بالتركية « طورغود رايس » اصله من بلاد الاناضول نشا صغيرا في الخدمة البحرية مع خير الدين باشا واشتهر في قيادة السفن حتى نال رياستها العليا . وله غزوات عديدة في البحر المتوسط منها هجومه على جزيرتي كرسكا وصقلية واستيلاؤه على جملة مراس منها ، ومات شهيدا وهو محاصر لجزيرة مالطة سنة ٩٧٣ هجرية الموافقة لعام ١٥٦٥ مسيحي .

(٢) الباب العالي ـ اسم يطلق على الحكومة العثمانية .

تلك التحملات وانتقل من حينه الى صقلية ـ سنة ٩٨٠ ـ واقام بها حتى مات فحمل جسده ودفن بتونس في تربة الشيخ الزليجي برحبة الغنم ٠

تجديد الحماية الاسبانية ـ غير ان الشروط التي أنكرها الامير ابو العباس احمد قبلها اخوه «محمد بن الحسن» ورضي بالدخول تحتها . فانتصب محمد الحفصي هذا بالقصبة ـ سنة ٩٨٠ ـ وقاسمه في امر دولته (الكنت سِرَبَلوني) الاسباني . وبمجرد استيلائه على البلاد بادر الاسبان الى تحصين المدينة ، فاقاموا قلعة عظيمة جدا خارج سور تونس اشتهرت باسم (الباستيون) [١] وجددوا بناء الحصن المعروف (بشكلي) بوسط البحيرة ، كما رَمَّموا حصون حلق الوادي وأسوارها بالحجارة الكبيرة المقطوعة من الحنايا الرومانية فاصبحت معقلا منيعا ٠

ولقد لاقى التونسيون في تلك المدة من جور العساكر الاسبانية وتعذيبهم بانواع المظالم ما حمل السكان على القرار الى البادية ، فتفرقوا أيدي سَبَا واختفوا بالكهوف ونالهم من الخطب وضروب الهوان ما لا يوصف . وزاد الطين بلة ، تطاول المتغلبين على المعالم الدينية التي أهينت وهتكت حرمها حتى قيل ان الخيول ربطت بجامع الزيتونة والقي ما فيه من نفائس الكتب في الطرقات ، وسيق البعض منها الى مكتبة الفاتيكان برومة ولاتزال تشاهد هنالك ٠

اختلال الحماية ـ بيد ان سلطة مدعّمة أركانها على الجور والاعتساف ، كما كانت الحماية الاسبانية بالديار التونسية ، لم يكن من الممكن

---

(١) الباستيون ـ لفظة اسبانية ومعناها القلعة وكان هذا الحصن واقعا خارج باب البحر حيث السفارة الفرنساوية الان وشارع البحيرة ٠

استمرارها لاغتباط الرعاية وتوغّر صدورهم عليها . فكان غالب السكان ينتهزون الفرص للايقاع بالحفصيين والاسبان معاً حتى سنحت الظروف بذلك في وقت وجيز بقدوم القوة التركية (والعدل ان دام عمر والظلم ان دام دمر) كما قيل في المثل .

تدخل الاتراك – أسلفنا ان درغوث رايس كان استولى على القيروان وأناب على ولايتها « حيدر باشا » فرتّب هذا القائد جيشا منظما وانضمت اليه العساكر التي كان تركها علي باشا والي الجزائر لحراسة تونس عند قدومه اليها . فكثر جمعه وصارت القوة التركية المجتمعة بالقيروان ذات اهمية . فلما ضرب الاسبان حمايتهم على بقايا المملكة الحفصية وتدخّلوا في شؤون البلاد عزم حيدر على نزع تونس من ايديهم . فتخابر في شان ذلك مع رصيفه « مصطفى باشا » قائد الحامية التركية بطرابلس واتفقا على جمع قواتهما والسير الى الحاضرة ، فجهز كل منهما عساكره والتقيا بالمحمدية ومن هنالك اخذا يزحفان على العاصمة حتى اذا قربا منها علمَا سراً بوصول فرقه من الإسطول العثماني للمياه التونسية لنفس الغرض الذي كانا يقصدانه . وبذلك قويت عزيمة الجيش الزاحفة .

سنان باشا – هذا الرجل من اعيان وزرآء الدولة العثمانية قد سبقت له شهرة في خدمة الباب العالي باخلاص ونصح حتى نال الصدارة . فلما فكّر السلطان سليم الثاني في امتلاك تونس لم ير للقيام بهذه المهمة أليق من وزيره سنان ، فعيّنه قائداً عاما على الجنود واضاف اليه (قلج علي قبودان) رئيسا على العمارة البحرية المتألفة من نحو الف سفينة .

وكان خروج هذا المدد العظيم من القسطنطينية في غرة ربيع الانور سنة ٩٨١ هجرية ٠

الفتح العثماني ـ وما كانت المراكب التي لنظر سنان تلقي مراسيها امام الحصون الإسبانية حتي سرى خبرها الى العساكر المخيمة على تونس فتسارع قوادها الى نصب الحصار على حلق الوادي برا حينما كان سنان سادا بنفسه البحر ، ودارت رحى الحرب بين الجيشين فاضطر الاسبان بعد مدافعة عنيفة الى التخلي عن مرساهم المنيع والتجأوا هاربين مع محمد الحفصي الى قلاعهم بتونس وتحصنوا بالباستيون ، فلحقهم الاتراك اليها واشتمر القتال اياما متوالية واخيراً تمكن سنان من فتح القلاع عنوة وتأسير من بها يوم ٢٥ جمادى الاولى سنة ٩٨١ ، فكانت هذه الوقعة من اعظم الوقائع الحربية لشدة القوتين المتقابلتين وكثرة من هلك فيها من الجانبين ٠

انقراض الحفصيين ـ وكان من جملة الاسارى المقبوض عليهم في هذه الحادثة الامير (محمد بن الحسن) الحفصي الذي ارسله شنان باشا الى الاستانة فبقي معتقلا بها الى ان قضى نحبه . وبموته انقطعت السلالة الحفصية بعد ان حكمت القطر الافريقي ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما حسبما مرّ بك ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ٠

١٢ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في الدور الحفصي الاسباني
(من سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٨١ هـ.)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
الحسن بن محمد الحفصي	٩٣٢ - ٩٤٢	امتلاك خير الدين لتونس برهة من الزمان ـ استنجاد الحسن الحفصي بملك اسبانيا ـ دخول الاسبان لتونس : سنة ٩٤٢
ابو العباس الثاني	٩٤٢ - ٩٨٠	استيلاء الاسبان على الساحل التونسي ـ امتلاك درغوث باشا للقيروان : سنة ٩٥٨ ـ انتصاب علي باشا بتونس : ٩٧٧
محمد بن الحسن الحفصي	٩٨١	تجديد الحماية الاسبانية ـ انشاء قلعتي الباستيون وشكلي ـ تدخل الاتراك ـ قدوم سنان باشا الى حلق الوادي ـ الفتح العثماني : سنة ٩٨١ ـ انقراض الدولة الحفصية.

الدور الاسلامي التونسي

(من سنة ٩٨١ الى سنة ١١١٧ هجرية)

الاستيلاء العثماني

نظام الحكومة ـ لما أتم سنان باشا فتح تونس واعمالها شرع في نظام يدور عليه سير البلاد . فكانت باكورة اعماله الحاق القطر التونسي بالولايات العثمانية فاصبح جزءاً من مملكاتها بافريقية الشمالية الممتدة من الجزائر الى البلاد المصرية . ثم اعتنى بحراسة البلاد فرتّب بها اربعة آلاف جندي من المطوعة المشهورين باسم (الانكشارية) (١) واناط نظر كل مائة منهم الى ضابط يسمى « الداي » وجعل لهم رئيسا وهو « الاغا » ، وخصص لجباية المال مأمورا يكنى « بالباي » . اما السفن الحربية فكانت لعهدة « قبودان رائس » وانشأ بالقصبة « ديوانا » تجتمع به هذه الهيئة لفصل قضايا الجند وتدبير الولاية . وقد انتخب اعيانا من اهالي البلاد يحضرون بالديوان للمشاركة في النظر .

وعندما توطد الامن بتونس وجرى العمل بالنظام المتقدم رجع سنان باشا الى الاستانة .

تقدم الديات ـ واستمر الحال على هذا الترتيب الى ان ثار صغار

---

(١) الانكشارية ـ وينطق بها (الينيشرية) ومعناها الجنود الجديدة ، وهم الجيوش الغير النظامية التي كانت بالدولة التركية قبل السلطان محمود .

الجند برؤساء الديوان وفتكوا بهم لجورهم ـ سنة ٩٩٩ ـ فعقد حينئذ الباشا وكبرآء العسكر مجلسا اجمع رايهم فيه على تقديم احد الدايـات للنظر في شؤون الانكشارية وحفظ مدينة تونس •

عثمان داي ـ وهو من افضل الجند القادمين صحبة سنان باشا ، كان ذا حزم وعقل ودين ، استقل بوظيفة الـداى ـ سنة ١٠٠٧ ـ وشمر عن ساعد الجد لتمهيد الراحة فسنّ قوانين الوزن بين الرعايا تعرف (بالميزان) ثم وجه عنـايته الى عمارة البلاد فوطّد اسبابها وقد أعانه على ذلك قدوم نحو ثلاثين الف مهاجر من جالية الاندلس •

إجلاء الاندلس ـ مضت قرون من الزمـان والمسلمون مالكون لغالب بلاد اسبانيا . بيد ان استيلاءهم لم يتمكن الاّ من الجهات الجنوبية لجزيرة الاندلس ، اما القسم الشمالي ولاسيما ناحية « اشتورية » فقد إستقل به نصارى الاسبان حيث انحازوا في جباله المنيعة ، ثم بتعاقب السنين وظهور الضعف على المسلمين ، تنمّر الاسبان وأخذوا يسترجعون المقاطعات الواحدة بعد الاخرى ، وساعدهم على ذلك انقسام المسلمين وتفرّق كلمتهم . فلمـا كان القرن الثامن للهجرة لم يبق من المملكة الاسلامية سوى « غرناطة » وأحوازها ، وبمقدار ماكانت عصبية المسلمين تنفصم إلاّ وأزر الاسبان يزداد قوة والتآمـاً . حتى كانت الطامة الكبرى سنة ٨٩٧ هجرية اذ حمل النصارى على المملكة الاسلامية حملة واحدة وافتكوا غرناطة نهائيا من ملوكها بني الاحمر على يد (فردند الكاثوليكي) صاحب قشتالة . والملك لله وحده

وفود الاندلس ـ فهاجر عندئذ خلق عظيم من مسلمي الاندلس

الى المغرب والمشرق ، وبقي كثير من ضعفائهم بمواطنهم مهانين في اعتقادهم ، مضطهدين في حقوقهم ، الى اوائل القرن الحادي عشر للهجرة إذ تكالب عليهم الاسبان بتوحش واخرجوهم من ديارهم جميعا ـ الاّ من تنصر منهم ـ بعد ان ساموهم سوء العذاب وشردوهم كل مشرد ، فنزل بعضهم بعد مشاق لا تحصى بالمغرب الاقصى لقربه من بلادهم ، وقصد آخرون القطر التونسي لما كان يبلغهم عن كرم إهله وخصب تربته . فوفدوا ملتجئين برقابهم ودينهم الى هذه الديار ـ سنة ١٠١٦ وما بعدها ـ وكان أول ورودهم على عهد عثمان داي كما مرّ . فاستبشر بقدوم هؤلاء المنكوبين ، وأنس غربتهم وحث أهل الحاضرة على اكرامهم حتى أنساهم فقد وطنهم .

انتشار العمران ـ ثم ان هذا الداي اقطع مهاجري الاندلس ما اختاروا من الاراضي ووزّع على محتاجيهم الاموال والنفقات فانتشروا في أكناف البلاد يشيّدون القرى وينشئون المزارع والبساتين حتى استأنف القطر عمرانه المفقود وثروته الغابرة ، فمن المدن التي أسسوها (سليمان) و (قرنبالية) و (الجديدة) و (زغوان) و (طبربة) و (مجاز الباب) و (تستور) و (قلعة الاندلس)[1] وغيرها . وعلاوة على ذلك فقد استوطن منهم جانب وافر حاضرة تونس واتخذوا بها حارات عرفت بهم مثل « حومة الاندلس » و « زقاق الاندلس » . وانشئوا اسواقا للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزَليج ، وقد نقل اهل البلاد عنهم أصول تلك الحِرَف حتى اتقنوها . وبالجملة فقد حصل للقطر من هجرة الاندلسيين اليه ثروة واسعة وعمران دافق .

---

(١) راجع في خريطة المملكة التونسية موقع هذه الاماكن .

وعلى أثر قدوم الاندلسيين الى تونس توفي « عثمان داي » رحمه الله سنة ١٠١٩ . ودفن بزاوية سيدي احمد بن عروس . وترك ذرية صالحة منهم حفيدته المحسنة الكبيرة « عزيزة عثمانة » ، وخلفه في الولاية صهره .

يوسف داي — انتصب هذا الداي واستقام له الامر بما بذله سلفه من السعي في ترقي البلاد وتوطيد راحتها ، وكان يوسف سديد الراي عادلا ، وفضله مشهور عند التونسيين ، ومن آثاره الباقية التي خلدت له الذكر الجميل : جامعه البهيج المعروف به الكائن قرب ضريح سيدي علي ابن زياد ، والمدرسة اليوسفية ، وما بالمدينة من اسواق التجارات كسوق الترك والبركة . وكانت سوقا للرقيق . وسوقي البشامقية والجرابة جميعها من انشاءاته . وأصلح الحنايا الحفصية وجلب عليها الماء لسقايات عديدة وذلك من حسناته ، كما أحدث حصوناً وجسورا حافلة وثكنات كثيرة لعساكر الانكشارية .

وعلى عهد هذا الداي حصل خلاف في الحدود بين ولايتي الجزائر وتونس ووقع بسببه قتال بين قبائل القطرين فتغلب الجزائريون في وقعة (السطارة) قرب الكاف . سنة ١٠٣٧ . ثم تدارك يوسف الامر بالصلح حقنا للدماء . وفي تلك المدة استرجعت حكومة تونس جزيرة (جربة) من ولاية طرابلس التي كانت اغتصبتها .

وفي ايامه علا شان الاسطول التونسي وقويت شوكة رؤساء البحر وفي مقدمتهم « اسطا مراد رايس » ، وتواترت شكوى ممالك اروبا من اعمال القرصنة فالتمست بعض الدول الاجنبية تلك المناسبة لنصب نواب (قناصل) لدى حكومة تونس . ولم يزل يوسف داي مطاع الامر محمود

الاثر الى ان التحق بربه . سنة ١٠٤٧ . ودفن رحمه الله بتربته في صحن جامعه .

اسطا مراد ـ قام بخطة داي بعد يوسف وكانت بيده رئاسة البحر كما تقدم ، وله في القرصنة اخبار مشهورة ، قيل انه جلب للحاضرة في مرة واحدة اثني عشر الف أسير وقريبا من تسعين مركباً بين كبيرة وصغيرة . وهو الذي عمّر مرسى (غار الملح) (١) بمهاجري الاندلس وانشأ بها قلعة دفاعية ، وقد كانت قبل ذلك مكمناً لمراكب قرصان الافرنج . وكان اسطا مراد ذا همة عالية ونجدة وحزم . ومن عدله عنايته باهل الذمة والذب عن حقوقهم ، ولم تطل مدته حيث توفي . سنة ١٠٥٠ هجرية .

وبعد وفاته أخذ امر الداي في التراجع حتى صار اسماً بلا مسمى واصبح النفوذ والرئاسة في يد البايات كما سنبينه .

مشاهير التونسيين

عزيزة عثمانة

المحسنة الكبيرة والمنعمة الجليلة (عزيزة) بنت ابي العباس احمد بن محمد بن عثمان داي . وهذا وجه شهرتها بعثمانة . نشأت هذه الفاضلة منتصف القرن الحادي عشر في وسط عائلة ذات يسر وكرم ، وقد اعتنى والدها بتربيتها فاضاف اليها من حفظها القرآن الشريف وعلّمها أصول الدين مع ما يتبع ذلك من الاداب وتدبير المنزل حتى تكاملت وصارت مثالا للعفة والحنان بفضل تلك التربية الاسلامية

(١) غار الملح ـ ويسميه الافرنج « بورتوفارينا » مرسى صغير في شمال المملكة قريب من بنزرت ـ راجع الخريطة .

العالية . ثم زوّجها أبوها بمن يلائم مقامها الرفيع - قيل هو يوسف داي - فكانت خير قرينة لافضل بعل . وبعد مدة تاقت نفسها الزكية لاداء فريضة الحج رغما عن صعوبة الاسفار في ذلك الحين ، فحجت مع حشمها وخدمها واعتمرت . وعند عودتها الى تونس اطلقت مماليكها واعتقت عبيدها احتسابا لوجه الله تعالى ، ثم تمادت على الاعمال المبرورة والخيرات الصالحة المذكورة حتى ملا صيتها الافاق . ولما أحست بدنو الاجل الذي لا مرد له وضعت وصيتها الخالدة .

فبهذه الوصية تجردت - عليها الرحمة والرضوان - من جميع ما تكسبه من الاملاك الشاسعة في سبيل مشاريع الخير التي ينجر نفعها العميم للضعفاء والمساكين مدى الاحقاب . فاوقفت على مرستان مدينة تونس (المستشفى الصادقي الان) ما يقوم بنفقاته ولوازمه باكمل عدة وأتم نظام ، كما حبست على عتق الرقيق ريعا معتبرا وكذلك على ختن الاطفال الفقراء وكسوتهم وعلى تجهيز الابكار عند زواجهن وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر .

وتوفيت برد الله ضريحها سنة ١١٢٠ وتربتها بحلقة النعال حذو المدرسة الشماعية ، وقد خصصت شيئا من ريع أوقافها لشرآء ازهار توضع على قبرها في كل فصل من فصول العام من ورد وياسمين وبنفسج . ولا غرو ان كانت تحب الرياحين فما هي إلاّ زهرة زمانها بل ريحانة تونس بما تركت من ذكر عاطر يتلوه لسان شاكر (والله لايضيع اجر من أحسن عملا) .

تقدم البايات - سبق لنا التعريف بالنظام الذي وضعه سنان باشا عقب الفتح العثماني ثم أشرنا الى الانقلاب الحاصل في هيئة الحكومة بسبب ثورة الانكشارية وما نتج عنه من تقديم خطة الداي واستحواذها على الرئاسة العليا في تدبير الولاية .

فلما تولى يوسف داي استنجب أحد صغار الموظفين وهو (مراد باي) فأدناه واعتضد به في الشوؤن المهمة من السفر بالعساكر واخضاع

البغـاة واستخلاص الجبايات ، وفي اثناء مباشرته لتلك المهمات سعى مراد باي لدى الباب العالي في لقب باشا فوافاه من قبل الخلافة العثمانية التقليد المرغوب ـ سنـة ١٠٤١ ـ ومن ذلك الحين توطدت وظيفة الباي وأخذت اهمية كبرى ، وتحول النفوذ شيئا فشيئا من أيدي الداي الى البايات الى ان استقلوا بالامر تماماً .

مراد باي ـ اما مُرَاد هذا فان اصله على ما قيل من جزيرة (كُـرْسِكَا) وأتى صغيرا لتونس فأسلم على يد سيده رمضان بـاي ، ثم تقدّم للولاية بعد وفاة مولاه ـ سنة ١٠٢٢ ـ فقام بوظيفته احسن قيام ، وكان يوسف داي يستكفي به في مهمات أمره . وما زال مراد يتدرّج في المراتب بما فيه من الكفاءة الى ان تقلّد لقب الباشوية كما مرّ فتنازل حينئذ عن السفر بالاحمال لابنه حموده ، وتوفي على أثر ذلك ـ سنة ١٠٤١ ـ ودفن بتربته جوار سيدي احمد بن عروس . وهو مؤسس الاسرة المرادية ، وقام بالامر بعده ابنه

حموده بـاي ـ ويدعى ايضا محمد بـاشا . كان نزيه النفس واسع الصدر كريما محبوبا عند العامة والخاصة . نازل القيروان سنة ولايته وشرد عنها (اولاد سعيد) [١] الذين كانـوا اعصوصبوا بها ، ثم توجه بالعساكر الى « حامّة قابس » وكانت ملجأ للمفسدين من الاعراب . فشدّد عليها حتى افتكها وأوقع بعُصاتها . وسار بعد ذلك الى عدة جهات من المملكة فمهّد راحتها وادخلها في طاعته . ولما عاد الى الحاضرة رتب (أوجاق الصبائحية) باربع مراكز من القطر وهي تونس والقيروان والكاف وباجة ، ووظيفة

---

(١) اولاد سعيد ـ قبيلة من الاعراب الزاحفين على افريقية مدة المعز بن باديس في اواسط القرن الخامس ، ويقطن اليوم البعض منهم بجهة النفيضة من عمل سوسة

هؤلاء الصبائحية تشبه كثيرا وظيفة «الجندرمة» في الممالك الاروبية ، وهي حفظ الراحة وتأمين السُبُل . وفي سنة ١٠٦٨ طلب حموده من السلطنة العثمانية ان تقلده رتبة الباشوية فأتاه الفرمان مؤيدا له بذلك ، فتخلى حينئذ عن السفر بالاحال لابنه الاكبر مراد باي الاتي ذكره وعقد لبقية اولاده على نواحي الولاية وتخلى عن الامر تماما ، فكانت وفاته ـ سنة ١٠٧٦ ـ ولهذا الباي في تونس ومدنها آثار حميدة منها : جامعه الشامخ البناء المحاذي لمقام الولي سيدي احمد بن عروس وصومعته البديعة ، ومنها مقام الصحابي الكبير أبي زمعة البلوي بالقيروان ، ومنها مرستان المرضى بحومة العزّافين من الحاضرة وأوقف عليه أحباسا جارية ، اجزل الله عليه الرحمة والثواب .

مراد باي الثاني ـ استأثر مراد بالسلطة بعد ابيه وكان شجاعا منصفا . نهض بالعساكر لاول ولايته يريد الجريد ، فبلغه في طريقه ان عثمان باشا والي طرابلس ثار عليه جند الانكشارية وقتلوه ، فاسرع مراد بالسير الى طرابلس ، وبعد ان شرد عصابة الجيش الثائر ونصب بها احد ابناء المقتول كرّ راجعا الى عمالته ، وقصد جبل (وُسْلَات) لمنازلة اهله الباغين ـ سنة ١٠٨٥ ـ فحاصرهم وضيّق عليهم المسالك الى ان افتتح الجبل عنوة ، ثم عاد الى مقره بتونس مؤيدا منصورا . وعلى اثر ذلك قامت عليه طائفة من جند الاتراك واعصوصبت باحدى الثكنات داخل الحاضرة فعاجل مراد رؤساءهم بالقتل والنفي وهدّم القشلة ، وبنى بموضعها مدرسة للعلم وهي المعروفة (بالمرادية) الواقعة بسوق القماش .

ومن مآثر هذا الباي القنطرة المحكمة المنصوبة على وادي مجردة

حذو مجاز الباب ، وكذلك جامع مدينة قابس والمسجد الحنفي بباجة . ولم يزل مراد قابضا على ازمة الامور ، ضارِباً على ايدي العمال والدايات الى ان توفي بقصر باردو . سنة ١٠٨٦ . وترك ابناء تنازعوا السلطة بعده واوقعوا قلاقل زعزعت عرش (بني مراد) حسبما ياتي بيانه :

محمد بن مراد باي ـ لما توفي مراد اتفق اهل الحل والعقد على ولاية ابنه فانتصب محمد باي وهو الرابع من بيتهم ، ولم يلبث ان حسده عمه (محمد الحفصي) وأخذ يغري عليًا شقيق محمد على ان يطالب اخاه بالمشاركة في الامر . ولا نفاذ غرضه ركن الحفصي الى الداي المتولي اذ ذاك وهو (مامي جمل) فاستعان به على بلوغ امنيته . وبعد مخابرات طويلة انعقد ديوان الجند الاعلى وكان من قراره خلع محمد وتقديم الحفصي في رجب . سنة ١٠٨٦ . وما كاد ينفض هذا المجلس حتى خرج محمد بن مراد قاصداً الكاف وتولى مكانه عمه الحفصي . ومن ذلك الحين طرق الخلل الدولة المرادية ودخلها مرض الانقسام وتلاشي العصبية الذي هو علامة الهرم .

محمد الحفصي ـ لما وصل محمد باي الى الكاف ضبط امرها وجعلها قاعدته ، وطفق يحشد الجموع لقتال عمه المحتال فانضم اليه غالب سكان المملكة لتعلقهم به وميلهم اليه لشجاعته وسماحته . اما الحفصي فانه لما أيقن بان المقاومة لا تفيده جمع الديوان بالحاضرة وأشهد على نفسه بالخلع وأخبر ابن اخيه محمد بذلك واستقدمه لاستلام زمام الولاية فزحف محمد بانصاره الى ابواب تونس واشترط خروج عمه الحفصي منها وابعاده عنها ، فركب هذا الاخير البحر وقصد الاستانة وسنذكر ما كان من خبره .

تنازع الاخوين ـ وبمجرد خروج الحفصي دخل محمد باي العاصمة وانتصب للامر فبادر باخيه علي وسجنه بقصر وضيق عليه . لكن بعد برهة تمكن عليّ من القرار فركب البحر الى قسنطينة من بلاد الجزائر وهنالك تزوج بابنة (سلطان بن منصر) شيخ الحنانشة (١) واستعان علي بصهره لطلب الولاية من أخيه وقد التفت حوله كثير من قبائل العرب التابعة للحنانشة . فزحف بهم الى القطر التونسي ونزل (بجبل وسلات) ولما بلغ الخبر الى محمد باي نهض مسرعا لقتال اخيه فحاصره بالجبل الى ان نزلت اليه رجال علي فاوقعوه في هزيمة شنعاء سنة ١٠٨٧ ونجا محمد بعد مشاق الى الكاف في نفر من انصاره .

انتصاب علي باي ـ اما علي فانه جد السير الى مدينة تونس وأخذ البيعة على اهلها وبعد توطيد أمره خرج بمحلته لجباية الاموال فما بلغ القيروان حتى فاجأه الخبر بان اخاه استولى على بلاد الجريد . فاقلع في أثره ولما شارف قفصة نكص محمد باي الى الحاضرة ودخلها في جمع عظيم واستقر بها قليلا ريثما علم بقدوم اخيه علي . فتلقاه محمد في جموعه بفحص سمنجة (٢) وحاربه . وقد تجرع سكان القطر في تلك المدة من تنازع الاخوين غصص الشدائد لجور انصار الجانبين وفقدان الامن . ولما اتسع الخرق وآل التشاحن الى حرب داخلية ـ وهي اضر الحروب ـ حاولت طائفة من العلماء والفضلاء اصلاح ذات البين ، فترددوا بين الفريقين لكن مع

---

(١) الحنانشة ـ قبيلة عربية كبيرة متوطنة بعمالة قسنطينة ومركزها مدينة تبسة .

(٢) فحص سمنجة ـ ويسمى اليوم الفحص باختصار هو وطن بعمل زغوان وارضه منبسطة صالحة لزراعة الحبوب .

الاسف لم ينجح مسعاهم . واستمر الخلاف والحرب الاهلية على ساق بين الاخوين الى ان قدم عمهما الحفصي متقلدا منصب الباشا من الباب العالي وانتهز فرصة تشاغبهما خارج العاصمة للاستيلاء عليها . سنة ١٠٨٩ . ولم تزد الحالة بذلك إلاّ تحرجاً وارتباكا •

تدخل الجزائريين — لما تحقق محمد باي ضعف انصاره بالقطر التفت الى الجزائريين واستنجد بهم لقتال اخيه فقدمت عساكرهم الى الكاف وتقابلوا مع محلة علي فهزموها . ثم زحف محمد مقتفيا اثر جموع اخيه فنزل صحبة الجزائريين (بالحرايرية) حوالي تونس . وهنالك بلغه أن الداي (احمد شلبي) اعصوصب ببعض الجند واستقل بأمر الحاضرة ، فراسل محمد اخاه عليا ولما حضر اصطلحا على قسمة البلاد بينهما وعزما على قتال الداي الثائر . وبالفعل جمع الاخوان قوتيهما والتقيا بالطائفة المتصبة فكانت الدائرة على جيشي محمد وعلي . وقوي حينئذ شان الداي احمد شلبي ، سوى ان دولته لم تدم إلا قليلا ريثما راسل الاخوان متولي الجزائر اذ ذاك وهو (ابراهيم خوجة) واستنجداه والتزما له شروطا مقابل اعانته لهما . فقدم الجزائريون للقطر التونسي للمرة الثانية واجتمعوا بالاخوين ثم قصدوا تونس فحاصروها الى ان تمكّنوا من الداي وشيعته . سنة ١٠٩٦ . وجددت البيعة للاخوين على قاعدة القسمة السابقة •

وفي هذه السنة نفسها توفي (محمد الحفصي) وكان نفاه احد ديات تونس الى البلاد العثمانية هنالك وجلبت جثته لتونس ودفن بتربة اسلافه •

استقلال محمد باي — غير ان المقاسمة التي تعاهد عليها الاخوان

لـم تكن بطبيعة الامر ان تتم وبالاحرى ان تستمر . فلم يمض الا اشهر حتى قتل بعض الاجناد عليـا ـ سنة ١٠٩٦ ـ وصفا الجو لمحمد . وبعد ايـام ارتحل الجزائريون يجرون وراءهم غنائم الشروط التي اشترطوهـا وانفرد محمد بولاية البلاد . ولهذا الباي مآثر حسنة انشأها مدة تقلباته في القطر ، منها مساجد ، ومدارس للعلم بالكاف ومثلها بباجة والقيروان والجريد وقابس ، وله بعض الاسواق بالحاضرة ما زالت موجودة ينتفع بها .

ثورة ابن شكر ـ وفي آخر عهد هذا الباي ثار عليه خليفته وصهره (محمد ابن شكر) واستعان بالجزائريين فامدوه بجيش نزل قرب الكاف ـ سنة ١١٠٥ ـ وخرج اليهم محمد بـاي في عساكره فهزموه واستولوا على ذخائره ، فكرّ الباي راجعا الى تونس وتهيأ للقتال وما كانت إلاّ ايام حتى هاجمه الجزائريون صحبة ابن شكر وخيموا (بالملاسين) [1] واخذوا يشنّون الغارة على أحواز العاصمة ، فايقن محمد بالغلبة وفرّ الى داخل القطر ، وتردد بين المدن التونسية الى ان ساعفه الحظ فجمع جيشا قاتل به ابن شكر وحزبه وهزمهم حذو القيروان ـ سنة ١١٠٦ ـ ونجا محمد ابن شكر مفلولا الى مدينة قابس وبها مات . ورجع محمد باي الى الحاضرة وهادن الجزائريين وبقي الى ان وافـاه اجله ـ سنة ١١٠٨ ودفن بضريح اجداده ، وخلفـه في الامر اخوه .

رمضان باي ـ كان هـذا البـاي ضعيف العزيمة خمولا ميّالا للبطالة واللهو ، وقد فوّض تدبير الولاية الى بعض مغنيه من الموالي فسار فيها بالحيف وأثـار على سيده الخواطر . وكانت أم رمضـان هـذا مسيحية

---

(١) الملاسين ـ دشرة صغيرة بباب مدينة تونس من غربيها .

وماتت على دينها فابتنى لها ابنها كنيسة بباب قرطاجنة وهي أول معهد للنصرانية انشيء بالحاضرة في المدة الاسلامية . وبعد عامين من انتصابه ثار عليه ابن اخيه (مراد بن علي) وقتله . سنة ١١١٠ . وتولى مكانه .

مراد بو بالة — لم تكد تتم الولاية لهذا الباي حتى اقبل على سيرته القبيحة الشهيرة بين التونسيين . وذلك ان هذا الظالم استباح كل المحرمات من هتك الحرمات والمجاهرة بالفواحش وسفك دماء الابرياء لمجرد الظن او التهمة الكاذبة . وكان له سيف يسمى (البالة) (١) لا يكاد يريحه يوما من اراقة دم ، واذا لم يقتل يقول : « ان البالة قد جاعت » . ولذلك عرف بمراد بو بالة . وغاية ما يقال عن جوره انه لم يتولى قط من الملوك ولا الامرآء الذين تداولوا على القطر التونسي أظلم من هذا الجائر الغشوم الذي أنزل باهل البلاد من الاعتساف ما لا يقدم عليه احد من الجبابرة الظالمين !

وفي اوائل سنة ١١١٢ وجه مراد هذا رسلا الى الجزائر بهدية لمتوليها فردها عليه واظهر له المداوة فاستشاط غضبا وعزم على حرب الجزائريين ، فجمع خيله ورجله وسار إلى قسنطينة وهزم صاحبها ثم وردت الامداد من الجزائر ففتكت بعساكر مراد قرب (سطيف) (٢) وتخلص مراد مفلولا مدحورا وقصد القيروان وخرب معالمها الجليلة ولم يترك بها سوى المساجد وبعض الزوايا ، ولبث هذا الجائر يعيث في البلاد فسادا حتى

---

(١) البالة — لفظ تركي لنوع من السيوف الحادة الشفرتين .

(٢) سطيف — مدينة من ولاية قسنطينة يبلغ عدد سكانها اليوم الخمسة عشر الف نسمة وبها جامع حسن .

فتك به (ابراهيم الشريف) بمواطاة كبرآء الجند وقيل باذن من الباب العالي، وعلى كلتـا الحالتين فقد استراحت منه البلاد والعباد. وكان مقتله في ١٣ المحرم ١١١٤ ، وانقرضت بانقراضه دولة بني مراد. ولله المبدأ والمعاد .

ابراهيم الشريف ـ أصل هذا الرجل من جند الاتراك بالجزائر ، قدم تونس مع الثائر محمد بن شكر ثم انخرط في خدمة محمد باي حتى ترقى الى خطة آغا . فلما أوقع بمراد بو بالة كما تقدم بايعه الجند وانتصب بتونس واولى (قـاره مصطفى) دايا ثم عزله وتقلد وظيفته وصار يرسم باوامره « ابراهيم الشريف باي داي » . وعلى أثر ذلك اتاه لقب باشا من الخلافة العثمانية فصار يوقّع « الباشا ابراهيم باي داي » . ثم اتخذ (حسين بن علي تركي) كاهية لاعماله واستكفى به في حروبه وسياسة اموره .

وفي خلال سنة ١١١٦ حصلت له وحشة مع متولي طرابلس فخرج اليه ابراهيم في جيش قوي وانتصر على الطرابلسيين انتصارا باهرا وحاصر عاصمتهم وشارف الاستيلاء عليها لـولا وقوع طاعون جارف في عسكره الزمه الرجوع الى الحـاضرة ، وفشا المـرض حينئذ في مدينة تونس وفتك باهلها حتى بلغ عدد المصابين به سبعمائة في اليوم على ما قيل .

عود الجزائريين ـ ولم يلبث ابراهيم الشريف ان نهض في رجاله لحرب الجزائريين . وكان كاهيته حسين بن علي يثبط عزمه على المبادرة بالقتال لانفضاض انصاره من حوله . فابى ابراهيم إلا التقدم فلمـا التقى الجمعان قرب الكاف ، وقد فر عنه غالب العربان ، انهزم ابراهيم الشريف وأُسِر مع اخيه ـ سنة ١١١٧ ـ ودخل الجزائريون الكاف وعاثوا في

ارجائها وامتلات ايديهم من نهبها . وما كاد خبر هذه الهزيمة يرد على تونس حتى جزع أهلها وارتاعوا من هجوم العدو وهم فوضى بلا رئيس. فاجتمع كبرآء الجند والعلماء والاعيان وتخابروا في انتخاب امير يقلدونه أمرهم ، فاتفقوا على تقديم الكاهية (حسين بن علي) لما يعلمون من حميد خصاله وحزمه . وقد كان انتهى بعد انهزام ابراهيم الى زاوية الشيخ السجومي جنوب الحاضرة ، فخرج اليه أهل الحل والعَقْد والزموه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم ، ودخلوا به مدينة تونس وقلدوه الامر . ٢٠ ربيع الاول سنة ١١١٧ . ومن ذلك الحين انتقلت الولاية الى (البيت الحسيني) العامر واستمرت في اعضائه كابراً عن كابر الى يومنا هذا .

١٣ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في الدور التركي

(من سنة ٩٨١ الى سنة ١١١٧ هـ.)

اسماء الولاة	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
الوزير سنان باشا	٩٨١	تنظيم الحكومة التركية بالقطر التونسي .
عثمان داي	١٠٠٧	وفود مهاجري الاندلس الى تونس : سنة ١٠١٦ ـ انتشار العمران .
يوسف داي	١٠١٩	انشاء بناءات نافعة بالحاضرة ـ تقدم الاسطول التونسي .
مراد باي	١٠٤١	تقدم أمر البايات ـ تأسيس العائلة المرادية .
حمودة باي	١٠٦٨	ترتيب الاوجاق ـ انشآء عدة معالم دينية .
محمد باي بن مراد	١٠٨٦	تنازع امرآء بني مراد للسلطة ـ تدخل الجزائريين في الشئون التونسية ـ ثورة ابن شكر .
مراد بو بالة	١١١٠	انهزام الجيش التونسي امام الجزائريين ـ اضطراب الاحوال لسوء سيرة مراد بو بالة .
ابراهيم الشريف	١١١٤	عود الجزائريين الى تونس ـ تقديم حسين بن علي الى الولاية .

الدور الاسلامي الرابع

الدولة الحسينية

تمهيد ـ مؤسس هذا البيت هو المولى (حسين باي الاكبر) واصل ابيه (علي تركي) من جزيرة كندية [١] . وفد علي للقطر التونسي في مبتدا الدولة المرادية وانخرط في الجند ثم تقلد رئاسة المتطوعين من الاعراب ولبث على هذه الخطة الى وفاته ـ سنة ١١٠٣ ـ ونشأ ابنه حسين في كنف البايات من بني مراد ، وتدرج في الولايات الرفيعة كوظيفة خزنه دار وهي امانة اموال الجبايات ، وآغا لصبائحية الترك وغير ذلك الى ان كان من انتخابه للولاية ما ذكرنا في الفصل المتقدم .

ولهذا الأمير الفضل في ترتيب أمر الولاية اذ جعلها وراثية يتداولها الاكبر فالاكبر من ذريته وبذلك خابت امال الطامعين ، وقد انتظمت امور الايالة التونسية بهمة افراد العائلية الحسينية الذين انشأوا المعالم الدولية وشيدوا المدارس ووضعوا القوانين المدلية ، وبالجملة مهدوا للرقي سبيلا ، حسبما تراه مفصلا في مكانه .

١) حسين بن علي ـ تمت له البيعة (بديوان المدافعية) أمام باب

---

(١) كندية ـ وتسمى ايضا كريت هي اعظم جزيرة بشرق البحر المتوسط . يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نفس . وغالب اهاليها اما يونان او مسلمون . وكانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية الى ان استقلت سنة ١٨٩٨ م. وصارت لها حكومة مركزية تحت مراقبة دول اربا العظمى ثم الحقت ببلاد اليونان .

القصبة في تاريخ ٢٠ ربيع الاول سنة ١١١٧ (١٣ يولية ١٧٠٥ م) . وافتتح حسين باي اعماله بترميم سور مدينة تونس وتحصين قلاعها واستعد لمدافعة المهاجمين ، وما لبث أن قدم الجزائريون في اربعين الف مقاتل وخيّموا بضواحي الحاضرة ، وكان الجيش التونسي لا يتجاوز الثمانية عشر الفا فسعى حسين باي في عقد صلح ولكنه لم ينجح ، فدارت الحرب بين الجانبين وفي الاخر أقلع الجزائريون بدون ان يحصلوا على كبير فائدة وانقلبوا لبلادهم خائبين ، وعاد حسين باي للعاصمة ومهّد عافيتها ، وصرف عزمه لترقية أسباب ثروتها .

ولم يكن لهذا الباي في أول أمره ولد فتبنّى ابن اخيه « علي بن محمد » وأحسن تربيته وضمّ اليه العلماء وحرّضه على اقتناء المعارف . فلما كبر عليّ استعان به في امور الدولة وولاه السفر بالامحال . ثم رُزق حسين باي أولاده الثلاثة محمد وعلي ومحمود من جارية نصرانية أصلها من جنوة .

خروج علي باشا — فلما بلغ عليّ من السن ثلاثين عاما أو نحوها منحه عمه لقب باشا ، واولى ابنه الاكبر محمداً خطة السفر بالمحلة . فاستصغر علي الوظيفة واغتاظ لذلك وخرج مغاضبا الى جبل (وسلات) فلحقه اليه حسين باي في رجاله وشرّده الى الصحراء . سنة ١١٤٠ . وتقلّبت الاحوال بعلي باشا الى ان وصل الى الجزائر ، فامده صاحبها بجيش جرار لمحاربة عمه على شروط اتفقا عليها ، وزحف علي بهذه النجدة الى القطر التونسي فالتقى بعساكر عمه (بسمنجة) وانتصر عليه . سنة ١١٤٧ . ثم دخل تونس وتقلد شعار الولاية مكان عمه وصار تابعا لداي الجزائر يؤدي اليه الجزية ، اما حسين باي فانه نجا مع ابنائه الى القيروان وتوالت الحرب ثانيا بين العم

وابن الاخ سنين طويلة حتى كانت سنة ١١٥٣ وفيها خرج حسين باي للقتال فاستشهد جنوب القيروان ، ودفن في تربته المشهورة بتونس •

مآثر حسين باي ـ كان لهذا الباي عناية خاصة بالعمران وأسبابه . وقد تشهد له بذلك اخبار عدله المروية وتحريضه لسكان القطر تحريض الاب المشفق لبنيه الصالحين ؛ فبهذه العناية اقبل الناس في ايامه على العمل وتعاطي وسائل الثروة كلٌّ على حسب استعداده واجتهاده ، فتنافسوا في الصناعات والمتاجر والفلاحة حتى امتلات ايديهم من المكاسب ، وكان حسين باي ينشّطهم على ذلك بتخفيف اثقال الجبايات ، ويعوّدهم بسياسته على الاقتصاد وعدم الاسراف حتى كاد يكون الترف ممنوعا في عصره ، وتسابقوا الى الخصال الحميدة والخلال الشريفة . والناس على دين امرائهم . كما في المثل •

ومن مآثره العمرانية احياؤه لمعالم مدينة القيروان التي كان خربها مراد بو بالة ، ومنها انشآته العلمية بالحاضرة كمدرستي (الحسينية) و (النخلة) ومدارسه بسوسة والقيروان وصفاقس ونفطة ، وهو اول من اتخذ « باردو » مقرا لحكومة الايالة وابتنى به قصرا ومسجداً ، وانشأ عدة جسور ومواجل لجمع المياه وغير ذلك من مصانع البرّ التي ابقت عاطر ذكره الى الآن . وقد يفنى البشر ويبقى الاثر •

٢) الباشا علي ـ لما استقل علي بالولاية كما ذكر حكّم السيف في شيعة عمه ، وابتلي بذلك أناس كثيرون . وكان لهذا الباي ابناء اكبرهم سناً « يونس » كان تقلّب معه في عسره ويسره واعانه بحزمه على الاستيلاء ، فلما آلت اليه الدولة اولاه قيادة الاحمال •

وفي سنة ١١٥٣ سير ابنه في جيش لتشريد الجنويين المقيمين بمرسى (طبرقة) (١) بقصد صيد المرجان ، وكانوا تجاوزوا المساحة المرخصة لهم. وشرعوا في انشاء قلعة محصنة بها ، فدهمهم يونس برجاله وزحزحهم عن القرية . ثم التفت الى قرية (تامكرت) (٢) وكان بها مراكز تجارية لبعض الشركات الفرنسية فخرّبها وأجلى عنها سكّانها ، فحصلت بسبب ذلك وحشة بين قنصل فرانسا وعلي باشا آلت الى قطع العلائق السياسية بين الحكومتين . وبعد الاستعداد والتهدّد من الطرفين وقع الصلح ورجعت الروابط الودادية الى معتادها .

ابناء حسين باي ـ كان ابناء المرحوم حسين باي نجوا عقب مقتل ابيهم الى الجزائر طالبين ثارهم . فلما كانت سنة ١١٥٩ خرجوا بجيش أمدهم بـه داي الجزائر ونزلوا على الكاف ، وقد انضم إليهم كثير من القبائل التونسية ، غير ان باي قسنطينة الذي كان حليفا لعلي باشا تثاقل عن امدادهم بالذخائر الحربية لحصار قلاع الكاف واضطر محمود ومحمد وعلي باي الى الرجوع بدون طائل . وسنذكر خبر عودتهم .

ثورة يونس ـ تقدم لنا ان يونس باي كان بالمنزلة الرفيعة عند ابيه الباشا لكفاءته وحزمه ، وكان اخواه سليمان ومحمد يغبطانه على تلك المنزلة من أبيهم واختصاصه بـامورهِ ، فسعيا به لدى والـدهما حتى اوغرا عليه صدره . ومن ذلك الحين دبّت عقارب الشقاق بين الاب والابن وآل أمر

---

(١) طبرقة ـ مرسى على جبل مرتفع من عمل عين دراهم بالشمال الغربي من المملكة التونسية ، ويوجد في بحرها المرجان الرفيع .

(٢) تامكرت ـ قرية كانت حذو طبرقة ويسميها الافرنج (كاب نيكر) اي الرأس الاسود .

يونس ان شق عصا الطاعة في وجه ابيه . وقد انحاز اليه جانب من رجال الدولة والجند والقبائل سنة ١١٦٥، وانقسمت الحاضرة شقين القبلي ليونس والجوفي لابيه . وبعد قتال عنيف بنفس المدينة وَهَنَ حزب الابن وخرج يونس في لمّة من اتباعه الى قسنطينة حيث اختفى عند متوليها وبها كانت وفاته . وكفى الله المؤمنين شر النزاع .

مقتل علي باشا — وفي اثناء ما كان الباشا علي يقاوم الفتنة التي أثارها عليه ابناؤه كان كثيرا من أعيان تونس يكاتبون ابني حسين باي سرّاً ويحثونهما على القدوم للبلاد لانصراف الخواطر اليهما ، فاستمد الاخوان جيشاً من صاحب الجزائر زحفا بـه الى القطر ، وكان وصولهما الى الكاف سنة ١١٦٩ ثم عمدا الى الحاضرة وحاصراها أياما حتى امتلكاها ودخلاها مع الجزائريين ، اما الباشا عليّ فانه دافع دفاع الآيس بمن بقي معه من انصاره الى ان قتل ، ودفن بتربته الشهيرة . وصفا جو الولاية حينئذ الى محمد باي .

مآثر الباشا — كان عليّ باي عالما شجاعا مهيبا الا انه كان جريئا على سفك الدماء لا سيما فيما يتعلق بالطاعة ، على ان ذلك الوصف لم يمنعه من الشغف بالعلم والانخراط في اهله ، ولا عجب فانه درس كثيراً في صغره وتلقّى علوم العربية والبيان على أعلام اختصهم بـه الشيخ محمد الخضراوي المتوفي سنة ١١٤٤ . وقد الف علي باشا كتاباً كبيرا شرح بـه « التسهيل » لابن مالك في النحو ، وهو شرح مفيد موجود ، كما انه جمع في قصر باردو مكتبة جليلة جداً من المخطوطات النادرة ، تلاشتها الايدي بعد قتله ، ولم يزل بعضها موجوداً في خزائن جامع الزيتونة وفي المكتبات

الخصوصية . وكان بلاطه مشتملا على ادباء اجلاء منهم الشاعر اللطيف (علي الغُرَاب الصفاقسي) المتوفي سنة ١١٨٣ صاحب التوريات الرقيقة ، والاديب البليغ (ابو عبد الله محمد الوِزْغي) المتوفي سنة ١١٩٠ المشهور بالقصائد الفخرية الجيدة ، و (محمد الشريف العياضي) المترجم لعلمآء عصره ، وسوى هولاء الادباء من المؤلفين والفقهاء كثيرون .

ومن مـآثر هذا البـاي الدالة على حبه للعلـوم المدرسة المعروفة (بالباشية) بسوق الكتبيين ، والمدرسة (السليمانية) ومدرستا بير الحجار وحوانيت عاشور بالحاضرة . وأوقف على جميعها خزائن من الكتب العلمية . ولـه غير ذلك من المصانع في سبيل تحصين البلاد وريّها لم يزل نفعها جارياً الى الآن .

٣) محمد الرشيد ـ باشر محمد باي أمر الولاية بتدبير وثبات خصوصا بعد ما لحقها من القلاقل ونهب الجزائريين . وقد اعتضد باخيه (علي باي) في مباشرة احوال الايالة . وكان محمد حميد الخلال متواضعا محبا للوطن واهله مشاركا في العلوم مشاركة حسنة . ولـه عدة قصائد شعرية نظمها زمن غربته في الجزائر يتشوّق فيها الى وطنه مطلعها :

أمولايَ ان النفس لمـا تعوّدت * جميلك راحت بالفواضل تنطقُ

الى ان يقول :

أتونس بعد الانس نالتك وحشة * فسحي دموعاً بل دمـاً يترقرق

لئن ردّني ربـي اليها بفضله * لاجري لها نهراً كالنّيل يدفق

وهي تدلّ على رسوخ قدمه في الفنون الادبيـة . إلا ان مدته لم تطل حيث توفي . سنة ١١٧٢ . وترك الولاية من بعده لاخيه الاصغر .

٤) علي باي الثاني ـ سار على خطة والده واخيه في ترقية البلاد وعمرانها بتعضيد الفلاحة والصناعة وبث العلوم مما أنبت محبّته في قلوب السكّان .

وفي أوائل دولته حصل له خلاف مع قنصل فرنسا أدى الى قطع العلائق واشهار الحرب بين الدولتين ، وسبب ذلك ان فرنسا ألحقت جزيرة (كُرْسِكا) بممالكها سنة ١٧٦٨ مسيحية ، فلم تصادق الايالة التونسية على إلحاقها ولا على الاعتراف بالجنسية الفرنسية لأُسارَى تلك الجزيرة المقيمين بتونس . وافضى الخلاف الى اعلان حرب فارسلت حكومة فرنسا فرقة من اسطولها اطلقت قنابل على مراسي حلق الوادي وبنزرت وسوسة والمنستير وبعد مخابرات أُبرم الصلح باردو سنة ١١٨٤ (١٧٧٠ م.) وانجلت الوحشة على ما يرضي الجانبين ، ورجع تجّار الفرنسيس الى الحاضرة فوجدوا أرزاقهم محفوظة محروسة .

إعانة الدولة العثمانية ـ لما انتهى الخلاف الحاصل بين تونس وفرنسا جهّز علي باي خمس مراكب حربية وشحنها بالرجال والذخائر وأرسلها اعانة للدولة العلية في حربها مع الروسيا سنة ١١٨٥ ، غير ان تلك السفن لم تباشر القتال لعدم تمكّنها من الدخول الى بوغاز الدردانيل والوصول الى القسطنطينية ، وبعد ما وضعت الحرب أوزارها سلّمت المراكب التونسية ما كانت تحمله من الاعانة الى مقر الخلافة وحصل المقصود .

مآثر علي باي ـ ومن حسنات هذا الامير الشاهدة بفضله عنايته بالعمران وتعميم المعارف ، فمنها مدرسته المعروفة (بالجديدة) قرب

تربة أبيه ، وإنشاؤه للمحكمة الشرعية ، ومنها ملاجى الضعفاء العواجز المسماة (بالتَكيّة) وقد خصص قسماً للرجال وآخر للنساء ، وأوقف عليهما اوقافا نافعة ، ومن حنانه وتواضعه لله انه لما تم بناؤها قاد بنفسه اليها العمي واطعمهم بيده جبراً لقلوبهم المنكسرة جازاه الله خير الجزاء ، وله غير ذلك من الاعمال الجليلة في سبيل الري وجلب المياه وضرب الاسوار على المدن مما يطول تعداده ٠

تقديم ابنه ـ ولما طعن علي باي في السن أشرك ابنه (حمودة) في الحكم وراسل الدولة العثمانية طالباً موافقتها على تقديم ابنه للولاية بعده ، فاسعفته بمرغوبه ووافته بالخلعة والفَرمان . وتوفي علي باي بعد ذلك بقليل ـ سنة ١١٩٦ ـ وابنه بين يديه في طاعته وبروره ٠

٥) حمودة باشا ـ ويكنى ابا محمد ، تصدر للرياسة وهو لها خليق وبها جدير ، وقد كان والده اعتنى بتربيته وتهذيبه وأهّله لادارة الملك ، فباشر أمورها بدراية واجتهاد ، ومما ساعد حمودة باشا على القيام بـاعباء الولاية أحسن قيام هو انتخابه لاعيان نبغوا في السياسة أعتضد برأيهم وحزمهم ، نخص منهم بالذكر الوزير المخلص « يوسف صاحب الطابع » ورئيس الكتبة القدير الشيخ « محمد بن محمد الاصرم » وقائد الجيش « سليمان كاهية » والناظر « محمد العربي زروق » وغير هؤلاء ، وهاك أهم الحوادث الواقعة في مدة هذا الباي ٠

الحرب مع البُنْدُقِيَّة ـ وسببها ان تجاراً تونسيين اكتروا من

بعض بحارة البندقية (١) سفينة لحمل بضائعهم من الاسكندرية الى صفاقس ، فلما كانوا بالطريق عرّج بهم المركب الى جزيرة (مالطة) وحينما نزلوا اليها قبض عليهم واليها وأوقعهم في السجن بدعوى ظهور مرض الوباء فيهم وأعدم بضاعتهم بالحرق ، فرفع التجّار أمرهم الى «حمودة باشا» فطلب من نائب جمهورية البندقية تغريم ما ضاع للتونسيين على مقتضى القانون التجاري ، وحيث لم تحصل نتيجة من المخابرات أفضى النزاع الى اعلان الحرب سنة ١٢٠٤ (١٧٨٥ م) وجهّزت تونس مراكبها الحربية وعساكرها ، ثم تقدّم اسطول البندقية ورمى سوسة وصفاقس وحلق الوادي بدون جدوى ، وفي آخر الامر رضيت البندقية بدفع الغرامة لتونس وانعقد الصلح على ذلك بين الحكومتين .

الاستيلاء على طرابلس - وفي تلك المدة وفد على الحاضرة (علي بن محمد قَرَمَانلي) صاحب طرابلس مشرداً من ولايته لاستيلاء الثائر (علي بُرْغُل) عليها ، فاكرم حموده باشا نزوله واحسن اليه ، ثم تطاولت اطماع الثائر المذكور فامتلك جزيرة (جربة) التابعة للايالة التونسية وألحقها بطرابلس ، وعند ذلك جهّز حمودة جيشاً يتألف من اربعين الف مقاتل وسيره مع قائده (الحاج مصطفى خوجة) الى طرابلس سنة ١٢٠٩ وأرسل الاسطول التونسي في اربعين مركبا لاسترجاع جربة فافتكها من حينه ، ونزلت العساكر على (المنشيّة) حذو مدينة طرابلس فقاتل علي برغل الى

---

(١) البُنْدُقِية مرفا كبير بشمال ايطاليا على بحر الادرياطيق وتسمى اليوم (فينيتسية) وكانت بها جمهورية مستقلة ذات سلطة وتجارة بحرية عظيمة . اما الآن فهي مدينة كسائر مدن المملكة الطليانية ، مشهورة بمبانيها الفنية .

ان هُزِمَ ، واستولى الجند التونسي على المدينة وأقر بها صاحبها علي قرمانلي ثم عاد الجيش للحاضرة ظافراً منصورا ٠

حرب الجزائريين ـ ما زال حمودة باشا من حين استلامه مقاليد الامر يدبّر في تأليف جند قوي مستوفي المعدات الحربية للهجوم على الجزائر ، فلما أكمل استعداده هيأ محلّة أوعب فيها أعيان فرسانه وسيّرها تحت قيادة وزير حربه « سليمان كاهية » فنزل على قسنطينة وألح في حصارها حتي اشرف على فتحها لولا انخذال الاعراب الذين كانوا معه ، فتفرّقت العساكر التونسية وولوا الاعقاب ـ سنة ١٢٢١ ـ فلما بلغ الخبر الى حمودة باشا هاله الامر واوجمه ، وعندئذ نهض رجال الدولة وفي مقدمتهم يوسف الطابع وهوّنوا عليه الخطب وجهّزوا في الحين من أموالهم محلة اخرى بمُهماتها ولوازمها ، وصمّموا على نزال الجزائريين ، وخرج الجيش الثاني تحت نظر الوزير يوسف ـ سنة ١٢٢٢ ـ والتقى الفريقان بمكان (سَرَّاط) قرب الحد الفاصل بين الولايتين ، وبعد قتال عنيف انتصر التونسيون انتصارا باهرا ورجع الوزير مؤيدا للعاصمة واحتفل بقدومه ـ ولم يكن بعد ذلك حرب بين تونس والجزائر ٠

ثورة الانكشارية ـ كان الجيش التونسي يتألف يومئذ من (الانكشارية) وهم من أبناء الاتراك وغيرهم يقيمون بثكنات معدّة لهم بالحاضرة ، ومن (مخازنية) وهم من أبناء البلاد المنخرطين في سلك الجند وظيفتهم تأمين السُبُل والمحافظة على الراحة وقد مر بنا تأسيس أوجاقهم ، ومن (مزارقية) عرفوا بذلك لحملهم ـ المزاريق ـ وهم المحاربون من قبائل الاعراب تحشدهم الحكومة في الجيش مهما افضت الحاجة الى ذلك ٠

فلما كانت سنة ١٢٢٦ خرج فريق من الانكشارية على الباي واعتصموا بقلعة القصبة معلنين الثورة فقاتلهم حمودة باشا اياما انهزموا في آخرها واطفأ بذلك لهيب نار الفتنة ٠

علائق تونس بالخارج ـ كانت علائق الايالة التونسية مدة حمودة باشا مع الممالك الاجنبية حسنة ، فقد حدثت في ايامه الثورة الفرنسية الكبرى ـ سنة ١٢٠٣ هـ و ١٧٨٩ م ـ ثم استولى نابليون الاول ، فكانت بينه وبين حمودة مواصلات ومهاداة . وقبلت تونس نائب دولة (الدنيمارك) وجدّدت معاهدات التجارة والسلم مع اسبانيا وهولاندة والولايات المتحدة الاميركانية وغيرها ٠

خصال حمودة باشا ـ كان هذا الباي عزيز النفس ، ثاقب الفكر ومع ذلك لا يستغني عن مشاورة رجال دولته ولا يأنف من الرّد عليه ، وكان يكره الاسراف في غير مصلحة مهمة حتى نسب الى الشح والتقتير ، وله في حب الوطن وهداية اهله الى طرق النجاح اخبار مشهورة منها انه كان لا يتباهي إلاّ بعمل البلاد من لُبْس منسوجاتها ومصنوعاتها ، ولم يلبث ان اقتفي الناس اثره في ذلك ـ والناس على مذهب امرائهم ـ ومن الآثار المروية عنه انه كان يقول : « الحلية للنساء لا للرجال وزينة الرجل ماله واعماله » ويقول « لا أبغض أحدا من اهل بلادنا إلا البطال الذي لا نفع فيه للوطن ، وأحب الناشط ولو يرعى البقر » وبالفعل أقبل الناس في ايامه على الفلاحة والمتاجر والصناعات ، وكثر العمران وظهرت الثروة بين السكان ٠

وأخبار هذا الباي منشورة مشكورة وهي سَمَر شيوخ المملكة وعجائزها ـ ولم تزل البلاد في ايامه تنمو عمرانها ويعظم شأنها الى ان

فجعت بموته ـ ليلة عيد الفطر من سنـة ١٢٢٩ ـ فحزن القطر لفقده ودفن بتربة ابيه رحمه الله تعالى وتقبل صالح عمله ٠

٦) عثمان باي ـ هو ابن المرحوم علي باي ، بويع ليلة وفاة اخيه حمودة باشا بمواطاة بعض رجال الدولة ، وكان ابن عمه (محمود بن محمد باي) هو المترشح للولاية على العادة الجارية في البيت الحسيني من تقديم الاكبر سناً ، فكظم محمود باي غيظه وبقي يتربّص امكان الفرصة ، على ان عثمان لم يكن في الحقيقة صاحب سياسة ، ولا خبرة له بادارة الايالة ، فانه أبعد عنه غالب اهل الرأي والنجدة واشتغل بخاصة نفسه فنفرته القلوب ، ولم يلبث ان ظهر الانحلال في امره فانتهز محمود بـاي الآونة واعتضد بابنه حسين وبكبار الدولة المنكسرة خواطرهم فدبّروا مؤامرة سرية أسفرت عن قتل عثمان باي بداره ـ ليلة عاشوراء سنة ١٢٣٠ ـ واستتب الامر لابن عمه ٠

٧) محمود باي ـ تقلد أمر الولاية عن كبر سن ، وكان المباشر لشؤونها في الواقع هو ابنه الاكبر وولي عهده « حسين باي » ٠

ولاول انتصابه ثار بعض جند الانكشارية وارادوا احداث الهرج فبادر الباي برجاله لاتلاف امرهم وتفريق عصابتهم ٠

مقتل الوزير يوسف ـ أسلفنا ان « يوسف صاحب الطابع » كان عميد الدولة في مدة حمودة باشا ، فلما تولى محمود باي أقر اهل المناصب العالية على رتبهم ومن جملتهم هذا الـوزير المفضال الذي أجمعت القلوب على محبته لخيراته واخلاصه ورفقه بالرعية . غير ان بعض كبـار الموظفين كانوا يحسدونه على تلك السمعة . فسعوا به لدى البـاي واتهموه بنوايا واهية

لاصحة لها حتى اوقعوه في حبال مكرهم فقتل ظلما سنة ١٢٣٠ ، وهذا شان ارباب المناصب العالية في الدول المطلقة .

الصلح مع الجزائر ـ استهل عام ١٢٣٦ بحادث عظيم في تاريخ افريقية الشمالية وهو وقوع صلح نهائي بين تونس والجزائر بمساعي الدولة العثمانية التي وجهت رسولا لاتمام هذه الهدنة ، فابرم الصلح بين الطرفين ، وردّ لتونس جميع ما اخذ منها من التراب ، وبفضل ذلك زالت الشحناء القديمة بين الايالتين المتجاورتين وفرح السكان فرحا كبيرا (وكفى الله المؤمنين القتال)

مساعدة الدولة العثمانية ـ وعلى اثر انعقاد هذا الصلح صادف ان ثار (الاغريق) على الدولة العثمانية وكانوا داخلين في ممتلكاتها ، فجهّز محمود باي فرقة من الاسطول التونسي تتألف من تسع مراكب حربية وارسلها تحت قيادة القبطان «حسونة المورالي» إعانة لدولة الخلافة ـ سنة ١٢٣٧ ـ فشاركت تلك السفن في اطفاء ثورة اليونان مشاركة حسنة .

عمران تونس ـ اذا نظرنا الى حالة تونس في مدة هذا الباي نجدها ترقت واتسع نطاق عمرانها . يكفيك شاهدا كثرة المعالم العمومية التي كانت بداخل الحاضرة ، وقد احصتها الحكومة لذلك العهد ، فكان بها ١٧ جامع للخطبة ـ وثلاثمائة مسجد ـ وعشرون مدرسة كبرى و١١٥ مكتب للمبتدئين ، عدا الزوايا والسبايل والتكايا والمستشفى والثكنات العسكرية وغير ذلك من المباني العائد نفعها على عموم السكان .

ولم يزل محمود باي رافلا في حلل الهناء والثناء الى ان توفي ـ رجب سنة ١٢٣٩ ـ وخلفه ابنه وولي عهده (حسين باي) .

مشاهير التونسيين

يوسف صاحب الطابع

هو الوزير الشهير أبو المحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع ، أصله من مسلمي (البغدان) (١) أتي به لتونس صغيراً بصفة مملوك وانخرط في خدمة المولى حمودة باشا باي الاحال . فلما لاحت عليه علامة النجابة والاخلاص سمي لرتبة الطبع واشتهر من ذلك الحين باسم هذه الخطة . وما زال يتدرج في مراقي الوظائف وقد اتسعت أمامه أبواب الشهرة والسمعة حتى صار عيبة لِسرّ الامير وسمير نجوته وعمدة الدولة في المهمات والبعثات السياسية ، ثم وقعت به تلك النكبة الشنعاء - في ١١ صفر سنة ١٢٣٠ - التي مر بنا ذكرها بسعاية سفلة الوشاة وسماسرة السوء . فذهب ضحية لاخلاصه وصدق سريرته (وكل ذي نعمة محسود) .

وكان لهذا الوزير الشهم ثروة طائلة أنفق جميعها في فعل الخير وأوجه البر ، على انه لم يتحصل على تلك الثروة من وظيفته بل انه اكتسبها من كـدّ يده بالتجارة خارج المملكة التونسية حين كان سكان القطر لا عناية لهم بالاتجار خارج بلادهم .

فمن آثار هذا الوزير عدد وافر من المساجد التي أوقف عليها من ماله الخاص احباسا جسيمة ، ومن اشهرها الجامع الحافل المعروف باسمه الكائن ببطحاء الحلفاوين بحاضرة تونس ، وقد ضم اليه مدرسة جليلة للعلم كما انه أحيا سائر ما اندرس او تداعى من الكتاتيب القرآنية بالحاضرة وغيرها . وله قنطرة جميلة الشكل بطريق ماطر وابتنى حصنا بباب الخضراء اشتهر باسمه ، وكانت له عناية باجرآء الماء فبنى سقايات وسبابيل عديدة داخل تونس وخارجها وله حبس معتبر على مستشفى صفاقس وغير ذلك من المنافع مما لا يدخل تحت حصر .

---

(١) البغدان - ولاية عظيمة كانت تابعة للدولة العثمانية وهي اليوم من مشمولات مملكة رومانية بالبلقان وبها كثير من المسلمين .

فبهذه المعالم والاثار اشتهر ذكره في القطر شهرة الشمس في رابعة النهار فهو مصادق قول من قال :

آثاره تنبيك عن اخباره ❋ حتى كانك بالعيان تراه

قابله الله برحمته واسكنه فسيح جنته .

---

٨) حسين باي الثاني ـ استقل بالولاية يوم توفي والده ، وكان حازما مقداما عارفا باحوال الايالة لمباشرته امورها في مدة ابيه ، وقد انتخب لمعاضدته رجالا مدرَّبين حنّكتهم التجارب ، منهم وزيره الاكبر (شاكير صاحب الطابع) ووزير القلم (محمد الاصرم) وباش حانبه (عبد الوهاب الصمادحي) والقائد (محمود الجلولي) وغيرهم من اهل الحمية .

واقعة ناورين ـ تقدم لنا ان « الاغريق » كانوا أحدثوا ثورة طالبين استقلالهم عن الدولة العثمانية فلم تنجح مساعيهم ، ثم ان انكلترا وفرنسا والروسيا انتصرت لليونان واشهرت حربا على الدولة التركية لارغامها على منح اليونان الاستقلال . وارسلت كل من هذه الدول الاروبية اسطولها لمياه اليونان ، واعتضدت الدولة العثمانية بقوات الولايات الاسلامية فكان أسطولها معزّزا بسفن حربية من مصر ومن تونس جهّزها المولى حسين باي ، والتقى الاسطول الاروبي بالاسطول العثماني بمرفا (ناورين) من بلاد الاغريق ـ سنة ١٢٤٢ هـ. (١٨٢٧ م.) ـ فكانت الدائرة على المراكب الاسلامية وأحرق معظمها غدراً ، ولم ينج الا قليل من المدافعين . ونال الاغريق عقب ذلك استقلالهم . والله ولي الامور يديرها كيف شاء .

استيلاء فرنسا على الجزائر ـ على اثر واقعة ناورين حصل نزاع

بين الدولـة الفرنسية ومتولي الجزائر وهو اذ ذاك (حسين بـاي) وآل الخلاف الى اعلان الحرب بين الحكومتين ، ونزلت العساكر الفرنسية بمدينة الجزائر فامتلكتها ـ سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م.) ـ ثم احتلت فرنسا بقية البلاد الجزائرية شيئا فشيئا الى ان تمّ لها الاستيلاء عليها ، وكان حسين باي في كل هذه المدة سالكا طريق الحياد . غير ان كثيراً من أعيان الولاية المجاورة وفدوا على الحاضرة واتخذوها موطنا فاوسع لهم الباي الكنف واحلهم محل الغبطة والامان .

اصلاحات داخلية ـ باشر حسين باي كثيراً من الاصلاحات الملائمة لمصره لا سيما وقد جاورته بالجزائر حكومة متمدنة وهي فرنسا ، منها ابطال قيس مزارع الحبوب قبل الحصاد وتمويضه بضريبة العشر ، ومنها ترتيب الجند التونسي ترتيباً نظامياً . وابتنى لسكناه (قشلة المركاض) وابطل فرقة الانكشارية . وبهذه المناسبة أمر الباي موظفيه وارباب الرتب العسكرية بترك زيهم المعهود وحمل اللباس النظامي وهو يقرب من الزي الافرنجي ، مقلداً في ذلك التغيير الواقـع في الالبسة الرسمية بالدولة العثمانية .

وتوفي حسين باي في المحرم سنة ١٢٥١ . وخلفه في الامر اخوه وولي عهده .

١٤ ـ جدول ملخص الحوادث الواقعة في الدور الحسيني الاول

(من سنة ١١١٧ الى سنة ١٢٥٠ هـ.)

اسماء الامراء	تاريخ الولاية	أهم الحوادث
حسين باي الاول	١١١٧	تأسيس البيت الحسيني ـ إنشاء معالم ومدارس بتونس والقيروان ـ خروج علي باشا على عمه .
الباشا علي	١١٤٧	تشريد الجنويين من طبرقة ـ ثورة يونس باي على ابيه ـ مقتل علي باشا .
علي باي	١١٧٢	حصول خلاف مع فرنسا ـ اعانة الدولة العثمانية .
حمودة باشا	١١٨٦	الحرب مع البندقية ـ الاستيلاء على طرابلس ـ حرب الجزائريين ـ قمع ثورة الانكشارية ـ تحصين البلاد .
محمود باي	١٢٣٠	قتل وزير ناصح : يوسف صاحب الطابع ـ وقوع الصلح نهاية مع الجزائر .
حسين باي الثاني	١٢٣٩	مشاركة الاسطول التونسي بواقعة ناورين ـ استيلاء فرنسا على الجزائر : سنة ١٢٤٦ ـ ابتداء الاصلاحات الداخلية .

٩) مصطفى بـاي ـ كان سليم الصدر حليما . جرى على سنن اخيه في الاعتناء بالعسكر النظامي . وهو اول من صاغ النياشين للضباط جزاء لهم على خدمهم وسماها « نيـاشين الافتخار » وجعل هذه الاوسمة مرصعة بالحجارة الكريمة ومنقوشا عليها اسم الباي . الا ان مـدة ولايته لم تطل لانه توفي ـ ١٠ رجب سنة ١٢٥٣ ـ وتولى بعده ابنه ٠

١٠) المشير أحمد باشا ـ مـا كاد يجلس على كرسي الولاية حتى شمّر عن ساعد الجد ونهض بالمملكة التونسية نهوضا لم يسبق له نظير . ولاول انتصابه ارسلت الدولة العثمانية اليه الخلعة مع (خط شريف) يقتضي تعيينه لرتبة المشيرية وأوسمة تقلّدها في موكب مشهود ٠

تنظيم الجند ـ واقبل احمد باشا على اصلاح الجند فصرف كامل عنايته لترتيب العساكر على النمط الجديد ، فجمع تحت الراية التونسية مـا ينيف على الثلاثين الف جندي موزعين الى عشرة آلايات من المشاة ، وفرقة من الخيالة ، واربعة آلايات من المدافعية ، وأسكن جميعهم في ثكنات ابتناها لهذا الغرض . كما انشأ « مدرسة حربية » بباردو لترشيح الضباط ـ سنة ١٢٥٦ هـ. و ١٨٤٠ م. ـ وقد جلب اليها معلّمين من ابرع ضباط تركيا وأروبا ، فكانت تلك المدرسة النواة الاولى لنشر الثقافة العصرية في البلاد ، وانتخب لها جماعة من اعيان المدرسين للعلوم العربية ، مثل الاديب الكبير « محمود قَبَادو » والكاتب الضليع « محمد التطاوني » والشيخ « محمد البشير التواتي » وغيرهم من علماء العصر ، فكانوا اكبر معين للتلامذة على تعريب مؤلفات تركية وافرنجية في عدة علوم لا سيما في الفنون الحربية ، تجاوزت

هذه الترجمات الأربعين تصنيفاً لم تزل مبعثرة في مسودّاتها ، وقد اخرجت هذه المدرسة في اقرب وقت ثلّة من الرجال العارفين العاملين ، منهم (خير الدين) والقائد (رشيد) والفريق (حسين) و (رُستم) وسواهم كثير .

البحرية التونسية ـ ووجه هذا الباي اهتمامه ايضا الى الاسطول فاشترى عمارة قوية تحتوي على اثنتي عشرة باخرة حربية وعلى بارجة من الطراز الكبير تسمى « الحسينية » . ثم أحدث مرسى حربيا (بغار الملح) أنفق عليه اموالا ذريعة ، واضاف اليه دار صناعة لانشاء السفن بحلق الوادي ، وأحكم بها معامل لصنع السلاح واصلاحه ومستودعات شحنها بالذخائر الحربية وآلات الدفاع .

الحالة المالية ـ غير ان هذه التجهيزات العظيمة بالنظر لحالة القطر قد أثرت في مالية البلاد واضعفت مواردها ، فاضطرت الحكومة لاحداث ضرائب جديدة على الصادر والوارد ومكوس على الاشياء المبتاعة لسد عجز ميزانيتها . وفوق ذلك احتكرت الحكومة بيع مواد مختلفة كالملح والدخان والجلد والصابون وقاولت أناسا على التزام تلك المغارم مقابل مال يعجّلونه لصندوق للحكومة . وقد لحق السكان ضيم كبير من تصرفات وجور الملتزمين واعوانهم .

انشاء المحمدية ـ وفي اوائل سنة ١٢٥٩ شرع المشير احمد في تشييد مدينة على ١٤ ميل من تونس سماها (المحمدية) فابتنى بها قلاعا واسواقا وجامعا ومدرسة ومساكن لخاصته ورجال دولته وغير ذلك من المباني الانيقة ، أنفق عليها مبالغ وافرة ، ولما تم انشاؤها اتخذها مقرا

لحكومته عوض باردو ، ولم تزل انقاض هذه المدينة قائمة لحد الآن تشهد بعظمة بانيها ٠

إبطال الرِّقيق ـ من اهم الاصلاحات التي اجراها هذا الباي ابطال بيع الرقيق بالقطر التونسي ، وامر بغلق سوق العبيد بالحاضرة وهو (البِرْكة) وحجّر على السكان الاتجار في ذلك ـ سنة ١٢٦٢ ـ كما اصدر امرا آخر في عتق جميع المماليك الموجودين بالمملكة . وقد شكرته على هذا العمل الدول الاروبية بواسطة نوّابها ٠

زيارة الباي لفرنسا ـ كان قدم على الحاضرة ابناء « لويس فيليب » ملك فرنسا يومئذ فاحتفل احمد باشا بقدومهم وبالغ في اكرامهم وهاداهم بما يناسب ، فالتمسوا منه زيارة بلادهم لتأكيد المودة بينه وبين الجنس الفرنسي ، فقبل المشير هذا الاستدعاء وعزم على السفر فاستخلف على المملكة ابن عمه وولي عهده « محمد باي » نائبا عنه ، وبارح حلق الوادي ـ ١٦ ذي القعدة ١٢٦٢ هـ . و ١٨٤٦ م . ـ على متن باخرة حربية مصحوبا بخاصة رجال دولته ونزل بمرسى (طولون) فزار دار صناعتها ثم توجه الى (باريس) عاصمة البلاد الفرنسية فتلقاه « لويس فيليب » بالحفاوة والتبجيل وتأنق في اكرامه ، واطافه في معالم باريس ومتاحفها ومنتزهاتها ، واستعرض امامه حامية العاصمة . ثم عاد الباي لتونس مبتهجا مما شاهده من مظاهر الثروة وقوة العلم وغزارة العمران ٠

حرب القرم ـ سبب هذه الحرب ان الروسيا تحاول من قديم الزمان اضعاف الدولة التركية للاستيلاء على القسطنطينية وعلى مضيق

الدردانيل . فلما كانت سنة ١٢٧٠ (١٨٥٤ م) - أشهرت حربا على تركيا ، فرأت بعض دول أروبا وعلى الاخص انكلترا وفرنسا من المصلحة مساعدة الاتراك ضد الموسكو ، ولما ابتدأ القتال (بالقرم) [١] ارسلت كلتا الدولتين عساكر لمعاضدة تركية ، كما سارعت بقية الممالك الاسلامية للاعانة . فجهز احمد باشا جيشا من تونس يتركب من اربعة عشر الف جندي بسائر ما يلزمه من المهمات الحربية وسيره للاستانة تحت قيادة (امير الامرآء رشيد) فشارك هذا العسكر في الحرب مشاركة فعلية خلدت له بين المحاربين ذكراً جميلا لما اظهره من البسالة والتجلد مع الادب والانقياد ، وانتهت هذه الحرب بانتصار الدولة العثمانية على الروسيا .

مأثرة احمد باشا - علاوة على ما مرّ بنا من النظامات القانونية والمؤسسات الحربية فان لهذا الباي الجليل اليد الطولى في العمران وبث العلم ، فهو اول من وضع ترتيبا للتعليم بجامع الزيتونة وعمر خزائنه بغالب الكتب الموجودة به الان ، ومن انشآته معمل الملف المحدث قرب طبربة ، ومنها بالحاضرة تجديد (باب البحر) الفاصل بين الحارة الافرنجية والمدينة العربية ، عدا القلاع والثكنات التي لم نذكرها خوف الاطالة .

وغاية ما يقال عن مأثرة هذا الامير انه حاول ابراز القطر التونسي من هيئة ولاية الى مملكة متجهة نحو الاستقلال . وكانت وفاته في ١٢ رمضان ١٢٧١ - رحمه الله وتقبل سعيه بالجميل .

---

(١) القرم - شبه جزيرة كبيرة بشمال البحر الاسود امتلكها المسلمون مدة طويلة وأسسوا بها إمارات صغيرة ثم اغتصبتها روسيا فضمتها لممالكها في سنة ١١٩٨ هـ . ١٧٨٣ م . - وقصبتها مدينة سيباستبول .

مشاهير التونسيين

احمد بن أبي الضياف

أصل هذا الوزير النحرير من قبيلة أولاد عون ، ولد بحاضرة تونس ـ سنة ١٢١٩ ـ ونشأ في حجر ابيه الشيخ (ابالضياف) كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع ، واعتنى به والده واحسن تربيته ، فتلقى العلوم على اساتذة عصره كالشيخ محمد بيرم الثالث والشيخ ابراهيم الرياحي وغيرهما ، ولما امتلا بالعلم حوضه اولاه المرحوم حسين باي خطة العدالة على صغر سنه ، ثم رقاه لخطة الكتابة بديوان الحكومة ـ سنة ١٢٤٢ ـ فقام باعبائها أحسن قيام ، ولم يزل على هذه المنزلة الى ان آلت الدولة الى المشير احمد باشا فعرف ما للرجل من الكمال وقربه وجعل بيده قلم دولته ورقاه الى أسنى الرتب ، وكان يعتمده في سفارته للدولة العلية العثمانية ، واستصحبه في سفره لفرنسا لما يعلم من أمانته وفصاحته ، وبقي على وظيفته الجليلة مع خلفه الى ان تولى المشير محمد الصادق باي فجعله من أعضاء مجلس الشورى الخاص ـ سنة ١٢٧٧ ـ وسماه وزيراً للقلم واعتمده في شرح القانون الاساسي المسمى بعهد الامان فاحكم دعائمه وقواعده ،

ولم يزل على هذا الحال يتدرج في الوظائف السامية الى ان كبر سنه واقعدته الشيخوخة فطلب الاعفاء من مباشرة الخدمة ، فاعفته الدولة واجرت له جراية كافية ، وغير بعيد وافاه الأجل فارتحل الى ربه عز وجل في ١٧ شعبان ١٢٩١ برد الله ثراه ،

وكان رحمه الله حسن المحاضرة ، عزيز النفس ، كريم الاخلاق ، ذا عفة ووقار ، لم يحفظ عنه شيء يشينه ، وله شعر جيد ، اما مأثرته الخالدة فهي التاريخ الكبير الذي وضعه للقطر التونسي وتراجم رجاله وسماه « اتحاف اهل الزمان ، باخبار ملوك تونس وعهد الامان » ولا غرو ان جاء هذا الكتاب شاملا للحوادث التاريخية حافلا بالمباحث العمرانية والفلسفية ، فان مؤلفه كان ابرع كاتب في ذلك العصر من نبغاء هذا المصر ،

١١) محمد باي الثاني ـ هو المشير محمد بن حسين بن محمود باي. سافر بامحال في مدة مصطفى باي، وتقلد ولاية العهد في ايام ابن عمه احمد باشا، ولما استتب له الامر أقر سائر رجال الدولة بمناصبهم، فكان «مصطفى خزنة دار» وزير العمالة والمال، و «مصطفى آغا» وزير الحرب، و «خير الدين باشا» وزير البحر، و «فليسين رافو» وزير الخارجية.

وفي اول ولايته رجعت العساكر التونسية التي كان أرسلها احمد باشا اعانة للدولة العثمانية في حرب القرم، واحتفلت البلاد يوم عودتهم ـ سنة ١٢٧٢ ـ واطلقت المدافع وكان نزولهم في موكب حافل مشهود.

ضريبة المجبى ـ أسلفنا ان التجهيزات الحربية التي قام بها المشير احمد حتمت على الحكومة توظيف مكوس جديدة، فلما تولى محمد باي بادر الى صرف العساكر الذين وجدهم ولم يبق منهم سوى من يقوم بالحراسة العامة وبحفظ قصره. وعلى أثره اسقط غالب الاداآت والمغارم المحدثة لموازنة واردات الحكومة بمتصرفاتها وعوضها بضريبة اخرى تعرف (بالمَجْبى) وقدرها ستة وثلاثون ريالا (٢١ فرنك ونصف ذهبا) يدفعها في كل سنة الرجال القادرون من سكان المملكة. وجاء في الامر الصادر بذلك ـ سنة ١٢٧٢ ـ ان هذه الضريبة موقتة تبطل متى تحسنت الحالة المالية غير ان السكان استمروا على دفعها مكرهين ولم تسقط فيما بعد.

قانون عهد الامان ـ ومن حسنات هذا الباي التي ازدان بها عصره وخلدت ذكره منحه قانونا اساسيا لسائر سكان البلاد على اختلاف مذاهبهم في حرية التدين، ومساواتهم في الحقوق العامة، وسمي هذا الدستور «عهد الامان» وهو مبني على احدى عشرة قاعدة أصولية كانت

أساساً للمحاكم الجنائية التي وضعت فيما بعد . وتقرر العمل بهذا النظام بحضور نواب الدول الاوروبية وكبرآء الموظفين والاعيان في ٢٠ المحرم ١٢٧٤ (١٠ سبتمبر ١٨٥٧) ، وحلف الباي في ذلك الموطن على اجرآء العمل بمقتضاه ، واستبشر الناس بصدوره لما فيه من الحرية والكفالة بحفظ المال والعرض . وسنعود .

المجلس الشرعي ـ واعتنى محمد باي بشأن المحكمة الشرعية الاسلامية ، فاصلح ديوان إلجد القديم ونصب به المجلس الشرعي . سنة ١٢٧٣ . وجعل الحكم يوماً يحضره القاضيان المالكي والحنفي والمفتيان لفصل النوازل الشرعية .

المجلس البلدي ـ ثم أحدث مجلساً بلديا بتونس . سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨ م) وانتخب اعضاءه من اعيان الحاضرة تحت رئاسة (حسين الفريق) مستشار الخارجية . وتولى هذا المجلس تنظيم المدينة واصلاح طُرُقاتها وتنويرها .

وقد أشتهر في دولته كثير من رجال العلم الاجلاء نخص منهم بالذكر شيخ الاسلام (محمد بيرم الرابع) والعلامة (احمد بن الخوجة) وقاضي الحاضرة الشيخ (محمد الطاهر بن عاشور) والأديب البليغ (محمود قابادو) وغيرهم من العلماء الاعلام .

وهذا الباي هو أول من ادخل للقطر الطباعة العربية لنشر الاوراق الرسمية ، وقد كان أستعمل قبل ذلك الطباعة الحجرية . وهو الذي امر بجلب مآء «زغوان» في قنوات الحديد الى العاصمة وقاول

مهندسين على ذلك ، فجلب الماء ووزّع على حارات المدينة ودورها واشفى به الغليل .

وتوفي (محمد باي) في ٢٦ صفر ١٢٧٦ . تغمده الله تعالى برحمته ، وتولى بعده اخوه وولي عهده .

١٢) محمد الصادق باي ـ كان عاقد النية على الاصلاح ومباشرة الامور بنفسه لولا شدة ميله لبعض المقرّبين اليه ممن لا خبرة لهم ولا يهتمون إلاّ بمصالحهم الشخصية ، فكانوا حجر عثرة في طريق الاصلاح الذي نواه ، واغتنموا شدة ميل الباي اليهم فسعوا بينه وبين محبي الاصلاح والقادرين عليه من اهل بطانته حتى انتفت الثقة بين التابع والمتبوع ، وانفرد اولئك الاغرار بالباي وخلا لهم الجو برهة ريثما تبين عجزهم وتفاقم الاضطراب وتقطعت بهم الاسباب وآل الامر الى ما سنقص عليك نبأه بعد حين .

وكان في اول ولايته القى مقاليد المملكة لوزيره الاكبر (مصطفى خزنة دار) فلما رأى هذا الوزير التغلّب على هوى الامير من اولئك الذين سبق الايماء اليهم عرف العاقبة الوخيمة التي تسير اليها البلاد فاهتمّ بنفسه واراد ان يجمع لها من الثروة ما يستظهر به على الايام ، واتبع هذه الطريقة غيره من ارباب الدولة فكان همّ كل منهم ان يأمن على نفسه بثروة يعدّها لتقلبات الزمان ، فامتدت الايدي الى الاموال بحق او بغير حق حتى اصبحت البلاد على شفا الهلاك لولا ان قيّض الله لها (خير الدين) الذي نهض بها من تلك الوهدة حسبما تراه من سرد الحوادث الواقعة في مدة هذا الباي .

تطبيق عهد الامان ـ تقدم لنا ان الباي السابق منح المملكة دستوراً يقتضي المساواة في الحقوق ويتكفل باحترام الاشخاص . غير ان هذا المشروع لم يقم منه اذ ذاك إلاَّ الاساس . فلما تصدر محمد الصادق باي امر بتطبيق أصول ذلك الدستور فانشئت ـ سنة ١٢٧٧ ـ مجالس أهلية لفصل القضايا بين الخصوم على مقتضى قوانين جنائية حررت لهذا الغرض ، كما انتخب مجلس أعلى يتالف من ستين عضواً للنظر في مصالح البلاد والشورى في المسائل السياسية والاقتصادية .

وعقب هذا التشريع سافر الباي الى مدينة الجزائر لمقابلة (نابليون الثالث) ملك الفرنسيس فتلقاه بها واكرم نزله وهنّاه بالاصلاحات العدلية التي أجراها .

الحالة المالية ـ بيد ان تلك المؤسسات القانونية لم تبطأ حتى تسرب اليها الانحلال ، فتعطّل نموها الطبيعي بسبب اضطراب المالية التونسية وسوء ادارتها . وقد راينا ان محمد باي كان وظف ضريبة المجبى على السكان لسد العجز فلم يغن ذلك شيئا نظراً لكثرة المصاريف المتزائدة يوماً فيوما . فاقترضت الدولة اولا ٢٨ مليون فرنكا بفائض فادح من بعض الافرنج ثم عقدت قرضا ثانيا بفرنسا قدره ٣٥ مليون فرنك تلاشته الايدي قبل وصوله ، بحيث لم يبلغ منه للخزينة الا النزر القليل . واراد الباي تدارك الازمة الواقعة في المالية فضاعف مُعَيّن المجبى باشارة بعض وزرائه ورفعه من ٣٦ الى ٧٢ ريالا ـ سنة ١٢٨٠ ـ

ثورة القبائل ـ وما كاد خبر ارتفاع المجبى ينتشر في القطر حتى

ثارت خواطر السكان ، ولا سيما قبائل البادية فانهم تجمعوا واشهروا السلاح ومنعوا السابلة ، وكان المقدم فيهم هو الزعيم (علي بن غذاهم) من قبيلة ماجر . وبعد ما قاومتهم الحكومة مدة بالقوة اضطرت لتخفيف المجبى وارجاعها الى اصلها الاول وبذلك خمدت الثورة خمودا ما .

تعاقب المصائب ـ وعلى اثر سكون الفتن الداخلية دهمت المملكة مصائب اخرى اثرت في عمرانها وكانت سببا في تناقص الانفس والاموال والثمرات . ففي اوائل سنة ١٢٨٢ ظهر مرض الهواء الاصفر (الكوليرا) وانتشر بسرعة في سائر الانحاء فمات به خلق كثير ، ثم تلته الحمى التيفوسية سنة ١٢٨٤ فلاقى اهل البوادي من ويلها شدائد ، لا سيما وقد اعقبت تلك النوائب مجاعة عظمى وارتفاع في اسعار المعاش لتعطيل وسائل الفلاحة وتشاغل اربابها بما هو اهم ، فالمّت بالسكان في آن واحد الاوبئة والمجاعة مما كانت نتيجته خراب جهات عامرة من القطر .

اللجنة المالية ـ وضروري ان حاصلات البلاد في تلك المدة كانت يسيرة وموارد الجبايات قليلة جدا ، فتحتّم على الحكومة طرق ابواب الاستقراض مراراً . وبما ان الايراد السنوي لا يكفي للقيام بمصالح الادارة ودفع فوائض الديون اعلنت الدولة التونسية عجزها المالي . واذ ذاك توفق الوزير المباشر خير الدين الى تشكيل (لجنة مالية) مختلطة تتولى قبض مداخيل المملكة ـ سنة ١٢٨٦ ـ وبعد تصفية الحساب وتعديل الديون كان مجمل ما على تونس ١٢٥ مليون فرنك ذهبا لاجانب مختلفين ، وتعهّدت اللجنة بدفع الفائض لمستحقيه في كل عام ، وبذلك استقام حال الحكومة واخذت روح الامل تدبّ في النفوس بعد اليأس .

وزارة خير الدين ـ ما زال (خير الدين) من حين تقلّد خطة وزير مباشر ، وهي وظيفة محدثة دعت اليها الضرورة اذ ذاك ، يواصل العمل في الاصلاح ويسعى بكل مجهوده لما فيه النجاح حتى انتخبه الباي للوزارة الكبرى عند انفصال (مصطفى خزنة دار) عنها ـ سنة ١٢٩٠ ـ وهذه الرتبة تمثّل رئاسة الوزراء والخارجية والداخلية والمالية في شخص واحد .

الاصلاحات ـ ومن حينئذ تصدى خير الدين لاتمام النظامات التي شرع فيها من أول نشأته السياسية . فاهتمّ بتمتين علائق المملكة مع الدول الاروبية وعقد المعاهدات بما يوافق مصالح الجانبين ، وانشأ « مجلسا مختلطا » بتونس للتقاضي بين الاهالي والاجانب في المسائل المالية ، وشرع في توحيد الاحكام في المملكة ، ووضع اول « مجلس صحي » بالحاضرة لمراقبة الامراض الوبائية ، وأحدث ادارة للاقاف العامة بنظام محكم ـ سنة ١٢٩١ ـ ثم التفت الى الفلاحة فسنّ لها قانوناً ملائما لمصالح القطر ، ورغّب السكّان في غراسة الزيتون والنخيل بتوزيع الاراضي الدولية على صغار الفلاحين ، فعمد الى أراضٍ متسعة بناحية صفاقس كانت عائلة (السِيَالة) واضعة يدها عليها فارجعها الى الدولة ، ووزّعها قطعاً متناسبة على من يغرسها زيتوناً من الاهالي ، كما وزّع ايضاً على صِغار الفلاحين مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية التي كانت تملكها الدولة في الجهة الشمالية من القطر ـ الفحص وزغوان ومجاز الباب ـ ووظّف عليها كرآء سنوياً طفيفاً مساعدة لضعفآء المالكين .

ومن مشروعاته في نشر المعارف تاسيس « المدرسة الصَادِقية »

وإرصاد الاوقاف ذات الموارد الوافرة عليها ـ سنة ١٢٩٣ ـ وهي اول معهد درست فيه العلوم العصرية ، وجلب اليها مدرسين من تركيا وفرنسا وايطاليا مع المعدّات اللازمة لمزاولة الجغرافية والكيمياء والطبيعة وسائـر العلوم الرياضية . وترتيب برنامج التعليم بجامع الزيتونة ، واحداث « المكتبة الصادقية » الملاصقة لهذا الجامع ، والسعي في احياء الصنائع الاهلية ، وانماء التجارة الوطنية بوسائل مختلفة ومسالك عديدة حتى أصبحت الامة التونسية بمساعي هذا المصلح الكبير وتنشيطه ترفل في حُلل الهناء والامان .

المشاكل السياسية ـ غير ان قيام خير الدين بمثل هذه الانشاآت الصالحة لم يخل من اثارة عقبات ومعارضات لا سيما من تدخّل (مصطفى ابن اسماعيل) الذي نال من الحظوة المكينة عند الباي ما وصل به الى تقلّد الوظائف العالية كوزارة البحر ووزارة الشورى وغيرها على ما فيه من عدم الكفاءة وقلة الخبرة بالامور السياسية ، فاضطر خير الدين الى التخلي عن منصبه بعد ان عُرف بمزاياه الشريفة واخلاصه في العمل للوطن ـ سنة ١٢٩٤ ـ وتقدّم بدله للوزارة الكبرى مصطفى بن اسماعيل .

ومن ذلك الحين اضطرب حبل الحكومة التونسية في الداخل والخارج ، واختلفت الاحزاب ، وكثرت المشاكل بدسائس بعض القناصل من يهمهم اضطراب الاحوال وطمع الدول الاجنبية ، فاصبحت البلاد كمثل مركب فقدت رُبّانها وسط الخِضَم تلاطمها الامواج وتقاذفها الرياح من كل جانب فلا تدري أي ساحل تقصد !

تدخّل فرنسا ـ وزاد الطين بلة اختلال المالية وتحرّش القبائل بداخل القطر لظهور العجز على الحكومة . وما زالت الحالة تزداد

تحرجا وارتباكا الى ان حصل تشاجر بين عربان جبال (خمير) في الشمال الغربي من المملكة وبين بعض الاهالي التابعين لحكم الجزائر فرأت الحكومة الفرنسية ان تتدخل في الشؤون التونسية لردع المعتدين وتأمين الراحة ؛ ولهذه الغاية ساقت من التخوم الجزائرية جيشا يتألف من ثلاثين الف جندي فقصد مدينة الكاف واحتلها ثم تقدم في داخل التراب التونسي نحو الوسط والجنوب ومن ناحية أخرى أرسلت فرقة من الاسطول أرست على مدينة بنزرت وانزلت ثمانية الاف جندي تحت قيادة « الجنرال بريّار » اتجهوا الى العاصمة التونسية وحاصروا (باردو) حيث مقام الباي .

نصب الحماية ـ وكان من نتيجة هذه الحملة العسكرية احتلال فرنسا للمملكة التونسة ونصب حمايتها على البلاد . وقد اعترف محمد الصادق باي بالحماية ووقع على المعاهدة التي عرضها عليه « الجنرال بريّار » غداة حصاره « لقصر السعيد » بباردو ، وذلك في ١٢ جمادى الثانية ١٢٩٨ (١٢ ماي ١٨٨١) ...

ومن ذلك الحين ارتبط تاريخ تونس بالاحداث الواقعة في داخل البلاد وانحصرت المهمة في الاصلاحات الحاصلة في هيئة الحكومة وتنظيم الادارة التونسية .

ويكفينا هنا الاشارة الى سقوط « مصطفى بن اسماعيل » من الوزارة وتعويضه « بمحمد خزندار » وقد أقام عليها نحو السنة و الى وفاة « محمد الصادق باي » في ١٦ ذي الحجة ١٢٩٩ ... وارتقاء اخيه سيدي « علي باي » على الاريكة الحسينية .

نظام الحماية ـ يستند نظام الحماية الفرنسية على معاهدة باردو

المشار اليها التي ينص الفصل الرابع منها على ان فرنسا يمثلها في تونس (مقيم عام) يكون الواسطة بينها وبين الحكومة التونسية كما ينص الفصل الخامس على ان علائق تونس الخارجية تكون لنواب فرنسا السياسيين في الخارج . ثم ابرمت الاتفاقية المضاة بسراي (المرسى) في ٢٥ جمادى الاولى ١٣٠٠ (٨ يونية ١٨٨٣) وبمقتضاها التزمت الحكومة التونسية باجراء الاصلاحات الداخلية من ادارية وعدلية ومالية التي تراها فرنسا مناسبة .

وبقيت شؤون المملكة الداخلية تحت امارة سمو (الباي) العلية . وله الولاية على الرعايا التونسيين ، وبيده السلطة التشريعية والختم على سائر الاوامر وهو عنوان الحكم والسيادة واستمر الحال على ذلك الا فيما حصل فيه تغيير حسبما نراه بعد .

١٣) علي باي الثالث — كان في مدة ولايته للعهد سافر مرات بالجيوش في داخل المملكة للمحافظة على الامن العام فاكتسب بذلك معرفة تامة بمصالح البلاد ورغائبها وكان كريم الاخلاق رقيق القلب له مشاركة طيبة في العلوم العربية والفقهية وكان وزيره الاكبر الشيخ « محمد العزيز بوعتور » ، وفي اوائل امارته امضى على اتفاقية المرسى المتقدم ذكرها . وعقدت الدولة التونسية قرضا قدره مائة وعشرون مليونا من الفرنكات من فرنسا بواسطة مقيمها بتونس (بول كنبون) وذلك لتصفية الديون القديمة . وفي جمادى الاولى ١٣٠٠ (ابريل ١٨٨٣) أسست وظيفة (الكاتب العام) بالحكومة التونسية لتنسيق شؤون الادارة التونسية ومراقبة سيرها كما أحدثت في داخل القطر مراقبات مدنية فرنسية في أهم المدائن وذلك للكشف عن تصرف نواب الادارة المحلية .

وفي السنة نفسها أنشئت عدة مصالح كبرى مثل (ادارة المال العامة) وتوابعها و (ادارة الاشغال العمومية) و (ادارة العلوم والمعارف) وبعد ذلك بقليل (ادارة الفلاحة والتجارة) وفي شهر شوال ١٣٠٢ - يولية ١٨٨٥ - أسس بالمملكة (دفتر خانة) لتسجيل الاملاك العقارية ويرجع نظره الى «المجلس المختلط» وهو يتألف من قضاة تونسيين وفرنسيين الى غير ذلك من المنشآت الجديدة ٠

وبعد حياة طويلة طيبة توفي سيدي «علي باي» مأسوفا عليه - يوم ٣ ربيع الاول ١٣٢٠ - ١٢ يونية ١٩٠٢ - وتولى بعده ابنه ٠

١٤) محمد الهادي باي - كان شهما جوادا رباه أبوه احسن تربية وغذاه بلبان اخلاقه وفي اول ولايته زار رئيس الجمهورية «اميل لوبي» البلاد التونسية. فقام الباي في العام بعده برد الزيارة وقوبل بمظاهر الحفاوة الملوكية غير ان مدة هذا الامير الصالح لم تطل حيث انه توفي صغيرا يوم ٢٤ ربيع الاول ١٣٢٤ - ١١ ماي ١٩٠٦ - فخلفه ابن عمه ٠

١٥) محمد الناصر باي - (ابن المرحوم محمد بن حسين الثاني) افتتحت ولايته باصدار مجلة العقود والالتزامات التي هي أول عهد للقانون المدني التونسي الحديث (أمر علي في ٢٨ شوال ١٣٢٤ - ١٥ ديسانبر ١٩٠٦) كما أدخل لاول مرة نواب تونسيون في «المجلس الشوري» المشرف على توزيع ميزانية الحكومة وكانت هيئته محصورة في نواب الجالية الفرنساوية خاصة. وفي سنة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ - أحدثت في مدينة تونس «الحالة المدنية» برسم الولادات والوفيات بالمجلس البلدي وجرى العمل بها بعد ذلك في سائر القطر ٠

ومن أهم الحوادث الواقعة في مدته : مهاجمة الدولة الايطالية على ولاية طرابلس التابعة للسلطنة العثمانية. فاستولت ايطالية على المدن الساحلية - اكتوبر ١٩٠٩ - وقد اثار هذا الهجوم الوحشي شعور كامل الأمة التونسية التي اظهرت من العطف والموالاة الى اخوانهم الطرابلسيين ما كدّر صفو علائق ابنـآء البلاد بالجالية الايطالية المقيمة في تونس ، وبسبب ذلك حصلت عدة مشادّات بين الاهالي وتلك الجالية . وزاد الطين بلة ان حاول المجلس البلدي بالحاضرة تسجيل (مقبرة الزلاّج) الاسلامية ووضع اليد عليها ، فتحمس ابنـآء البلاد لذلك وقاوموا ضد التسجيل وتعرّضوا لاجراءاته فتدخل اعوان الشرطة وأرادوا منع المعترضين بالقوة ، فـآل الامر الى مشاجرة عنيفة امام المقبرة وفي اثنائها القى المتظاهرون الحجارة واستعمل الاعوان السلاح وأصيب من الاهالي جماعة بالرصاص فقضوا نحبهم وجرح كثير منهم وقد مات بعض الشرطيين وتحوّل الهيجان الى بعض الحارات العربية. وبسببها نصبت حالة الحصار وحكم على نفر من المتظاهرين بالاعدام وعلى فريق آخر بالسجن - ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٠ - ١١ نفامبر ١٩١١ - ووقع نفي ذوات من التونسيين ، وابعد بعض الشباب المثقف الى الخارج .

الحرب الكبرى الاولى ـ وما كادت كارثة طرابلس تهدأ شيئا ما حتى ثارت الحرب الكبيرة الاولى بين الحلفاء (انكلتيرا وفرنسا ثم ايطاليا) وبين دول المحور (المانيا والنمسا ثم تركيا) - رمضان ١٣٣٢ - اغسطس ١٩١٤ - وكان من اثر هذه الحرب على البلاد ان دخلت المملكة التونسية الى جانب الحلفاء وساعفت بابنائها الذين شاركوا في ميادين القتال وابلوا البلاء الجسيم ، فقد بلغ عدد المقاتلين منهم زهاء خمسة وستين الفا قتل منهم نحو الاثني عشر الفا .

وفي اثناء الحرب ثار بالناحية الجنوبية للقطر التونسي « خليفة بن عسكر » وقد انظم اليه كثير من المحاربين الطرابلسيين فاستولى على مركز ـ الذهيبات ، وجنيّن ، وأم السويق ـ وكان قيام خليفة بن عسكر في أوائل شهر اوت ١٩١٥ ، وامتدت غاراته الى المراكز العسكرية بجنوب البلاد مثل ـ بئر قصيرة ، ورمادة ـ وقد قاومته الجيوش المنظمة ودامت مطاردته الى ان وضعت الحرب أوزارها فافتك منه ما كان استولى عليه واخيرا قتلت عصابته ورجعت الحالة الى الهدو والامان .

وبانتهاء الحرب الكبرى ـ ١١ نوفمبر ١٩١٨ ـ عادت البلاد الى حياتها الاعتيادية واستأنفت سيرها في مضمار التقدم والرقي ، وقد عوّض « غبريال الابتيت » المقيم العام بتونس بخلفه « لوسيان سان » الذي قدم الحاضرة في اوائل سنة ١٩٢١

وفي السنة التي تليها احدثت (وزارة العدل) التونسية للتفريق بين السلط وابطل من حينئذ العمل بالاحكام الادارة ـ ١٩٢٢ ـ وانتخب لها المرحوم « طاهر باشا خير الدين » ابن الوزير التونسي الطائر الصيت .

وفي نفس السنة زار رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو « ميلران » المملكة التونسية فتلقاه سمو الباي بحفاوة واكرام . وبعدها بقليل توفي سيدي محمد الناصر ـ يوم ١١ جويلية ١٩٢٢ ـ مأسوفا عليه من سائر الامة التونسية لما خصه الله به من صفات التواضع والحنان والخوف من الله تعالى . وتولى مكانه ابن عمه سيدي

١٦) محمد الحبيب باي ـ (ابن المأمون بن حسين باي) افتتحت دولته بصدور اصلاحات ادارية وسياسية جديدة منها تأسيس (مجلس كبير)

منتخب في الدرجة الثانية تحت رئاسة المقيم العام عوض بـه (المجلس الشوري) الذي تقدم ذكره ، و (مجالس شورية) لجهات المملكة الخمس ، و (مجالس للاعمال) بامر علي مؤرخ في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٠ - ١٣ يولية ١٩٢٢ - اما المجلس الكبير فانه يتركب كسالفه من قسمين ايضا متساوي عدد النواب من تونسيين وفرنساويين يتفاوضون كل بانفراده ومهمة هذه المؤسسة هو بحث الميزانية التونسية التي تعرضها عليها الحكومة وله حق الابتكار في احداث مشاريع جديدة في الميزانية وتبدي أراءها في القروض العمومية كما له النظر في الاتفاقات التي تعقدها الحكومة مع الافراد واذا حصل نزاع بين القسمين فهناك لجنة تحكيمية تسوي مسائل الخلاف ، واعضاء هذه اللجنة ينتخبون بالسوية من القسمين . وكان المقصد الاصلي الذي يرمي اليه المجلس الكبير هو ان يسمح لنواب الامة التونسية ومنتخبي الجالية الفرنسية بالتعبير لاولي الامر عن رغائب البلاد والقيام على تحقيقها باتفاق مع السلط المركزية .

ومما يستحق الذكر في هذا المهد انشاء حجرتين تونسيتين بالانتخاب (حجرة للفلاحة) و (حجرة للتجارة) وكان تأسيسهما في شعبان ١٣٤٢ - مارس ١٩٢٤ .

ولم يزل سيدي « محمد الحبيب باي » معظما محبوبا الى ان لبّى داعي ربّه يوم ١٣ شعبان ١٣٤٦ - ١١ فبراير ١٩٢٩ - وخلفه ابن عمه .

١٧) أحمد باي الثاني - (بن علي بن حسين باي) تولى والازمة الاقتصادية ضاربة اطنابها في جميع العالم . أما في البلاد التونسية التي لا تعيش الا من محصول فلاحتها فانها قد اضرتها بصفة خصوصية . لا سيما

وقد ظهرت الازمة في سنين تتابع جدبها لقلة نزول الامطار ، وتسبب عن ذلك تعطيل اسباب الزراعة وموت المواشي وفناء ذخر صغار الفلاحين . فقاسى السكان الآم الشدة والبؤس ، وتجاه هذه الحالة التجأت الحكومة الى اتخاذ بعض الوسائل لمقاومة الازمة وايقاف تيّارها . وفي شهر افريل ١٩٣١ زار المملكة رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو « قسطون دوميرق » بمناسبة مرور خمسين سنة على نصب الحماية . وعقب قدومه بقليل تعين « مرسيل بيروطون » مقيما عاما بتونس . يولية ١٩٣٣ .

وقد اصدرت الحكومة أمرا عليا في جمادى الثانية ١٣٥٢ - اكتوبر ١٩٣٣ - في توقيف بيع الاملاك العقارية المرهونة في ديون ناشئة عن الضائقة المالية . وقد عينت لجان لمنح آجال واسعة للمدينين في خلاص ما عليهم ، وبذلك خفت وطأة الازمة شيئا ما .

وفي اول سنة - ١٩٣٥ - انشيء ديوان لضمان البضاعة التونسية من الغش والتقليد ، وذلك بوضع علامة مخصوصة على المنتوجات الصناعية لتكون ضمانا لها واثبات اصلها وحسن صنعها .

تحرّج الحالة - وكان من مظاهر الضائقة الضاربة في عموم ميادين البلاد طلب فريق كبير من السكان من الحكومة بوجوب اجرآء اصلاحات اصولية في هيئة الحكم والادارة .

ففي صائفة عام ١٩٣٤ عمّ القلق ونشأ بين اهالي العاصمة وكثير من مدائن المملكة تظاهر في الشوارع وأضراب عن العمل وغلق دكاكين التجارة وفي اثناء ذلك حصلت مشادات عنيفة بين اعوان الامن والمتظاهرين ادّت الى استعمال السلاح وموت البعض منهم وجرح عدد كبير من ابناء

البلاد فقرّرت الحكومة نصب الحكم العرفي وتعطيل الصحافة العربية كما وقع نفي رؤساء « حزب الـدستور » الى اقصى الجنوب بتهمة اثارة الهيجان ولم تمنع هذه التدابير من استمرار تظاهر الاهالي ، والالحاح في المطالبة بالاصلاحات المطلوبة .

وقد تعين مسيو « أرمان ڤيون » مقيما بالسفارة العـامة عوضا عن مسيو « بيروطون » افريل ١٩٣٦ ، واستؤنفت حركة المظاهرات بشدة في عدة مدن ومراكز منها (المتلوي) في ناحية قفصة وفي (الماتلين) من قرى بنـزرت . وقاومت القوات المسلحة المتظاهرين ، وكم مرة استحالت المظاهرات الى معارك دموية مثلما حصل في بنزرت في شهر ينـاير ١٩٣٨ ، ولا سيما في الحـاضرة . في ابريل من السنة . وآل الامر آخرا الى نصب حالة الحصار في تونس ومراقبتي سوسة والوطن القبلي .

والاسباب الاصلية لهذه المظاهرات وهذا الهيجان ، واتجاه الفكر التونسي الى المطـالبة بالاصلاح هي ان الشعب التونسي قد تنبه وحصل له وعي ورشد لم يكونا فيه من قبل . وذلك ناشىء عن يقظة في نخبة كبيرة من الشباب المثقف بالعلوم العصرية وقد ارتقى وعيه فصار يطالب . والشعب معه . بضرورة ادخال اصلاحات يراها لازمة للهيئة التونسية لا سيما وقد فتحت حكومة الحماية باب التجنيس الفرنسي الى سائر العناصر المقيمة في البلاد فرأت تلك النخبة المثقفة ان مثل هذه الاجراءات تمس بالذاتية التونسية وتقضي عليها عاجلا أو آجلا بالفناء ولذلك تحرجت خواطر الشعب وأخذت تطالب بـالاعتراف بذاتيتها أولا وبالاصلاحات لحفظ كيانها ومركزها السياسي والاداري ثانيا . لا سيما وان عدد السكان اخذ يتزايد

يومـا فيومـا بحيث اصبح من المحتم على أولي الامر الاهتمام بمساعدة الشعب ومسايرته في رغائبه المعقولة .

الحرب الكبرى الثانية ـ وفي هذه الاثناء كانت العلائق السياسية بين ممالك أروبا يتعكر سيرها يوما فيوما وتوترت الحالة الى ان آلت إخيرا الى اعلان فرنسا وانكلتيرا الحرب على المانيا وايطاليا ـ ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ـ لكن مقابلات الجيوش والمعارك الدموية الكبيرة لم تبتد في الحقيقة الا في اواسط السنة التـالية . ففي شهر يونية القت طائرات اطالية على بنزرت وتونس مقذوفاتها الجوية ولم تحصل منها مضرة تذكر . ثم ان « المرشال بيتان » المتولي لرئاسة الحكومة الفرنسية طلب عقد هدنة صلح مع المانية ـ ٢٥ يونية ١٩٤٠ ـ وقد تعين « الاميرال استيفا » مقيما عاما بتونس

وفي ٣ جمادى الثانية ١٣٦١ ـ ١٩ يونية ١٩٤٢ ـ مات سيدي (أحمد باي الثاني) وارتقى العرش الحسيني بعده

١٨) محمد المنصف باي ـ (ابن سيدي الناصر باي المتقدم) هو الملك الكريم الموصوف بصدق اللهجة . المتشبع بروح الاخلاص والغيرة الذي حاول حمـاية شعبه في اصعب وقت عرفته البلاد وكان في كامل مدته مظهراً للرأفة بافراد شعبه كبيرا وصغيرا .

اعتلى الاريكة التونسية والعالم باجمعه في حرب ضروس ، ولاول ولايته انزلت الحكومة الامريكية قوة عسكرية عظيمة في بلاد المغرب الاقصى وفي مرافي بلاد الجزائر تحت قيادة الجنرال (ازنهاور) وقابلت جيوش دول المحور ذلك بالمثل واستولت على جانب كبير من القطر التونسي ـ ٩ نوفمبر ١٩٤٢ ـ ومن ذلك الحين ابتدأت في تراب البلاد التونسية معارك

مدمّرة بين قوات الحلفاء (انكلتيرا وأمريكا وفرنسا) وبين جنود المحور (المانيا وايطاليا) وقد تجمع في البلاد التونسيـة ذات الرقعة الضيقة في آن واحد خمسة جيوش هي أكبر قوة في العالم وكانت الحرب بين الفريقين سجالا تارة لهؤلاء وأخرى لهؤلاء ولاقى التونسيون في اثنائها ضروبا من الآم الجوع والتّشرد والعراء (علاوة على الخسائر الحاصلة في المنازل والمحلات من التخريب والهدم) لا تدخل تحت وصف . ودامت الحال على ذلك ستة اشهر متوالية وتضرر من المدن الكبرى (تونس وبنزرت وسوسة وصفاقس) أضرارا فادحة كما تضرر كثير من القرى والارياف أضرارا متفاوتة بالقذف الجوي واعتداءات الجنود على اختلاف اجناسها .

وفي النهاية اسفرت الحرب عن استيلاء قوات الحلفـاء على كامل البلاد التونسية وطرد جنود دول المحور عنها (يوم ٧ مـاي ١٩٤٣) وقد تباشر السكان بانتهاء الحرب في تربة بلادهم وابتهجوا لولا مادهمهم من خلع مليكهم المحبوب من طرف قوات الحلفاء بسبب وشايات مغرضة لم يقم عليها أدنى برهان فوقع نفيه الى مدينة « بـو » في فرنسا فاستاء الشعب وامتعض لهذا الارهاق الممقوت فأقام سموه في منفـاه الى ان وافاه الاجل المحتوم (يوم الاربعاء ٢٧ شوال ١٣٦٧ ـ غرة سبتمبر ١٩٤٨) ونقل جثمانه الى تونس حيث دفن بمقبرة الزلاّج عملا بوصيّة منه في محفل مشهود قـل ما يكون له مثيل .

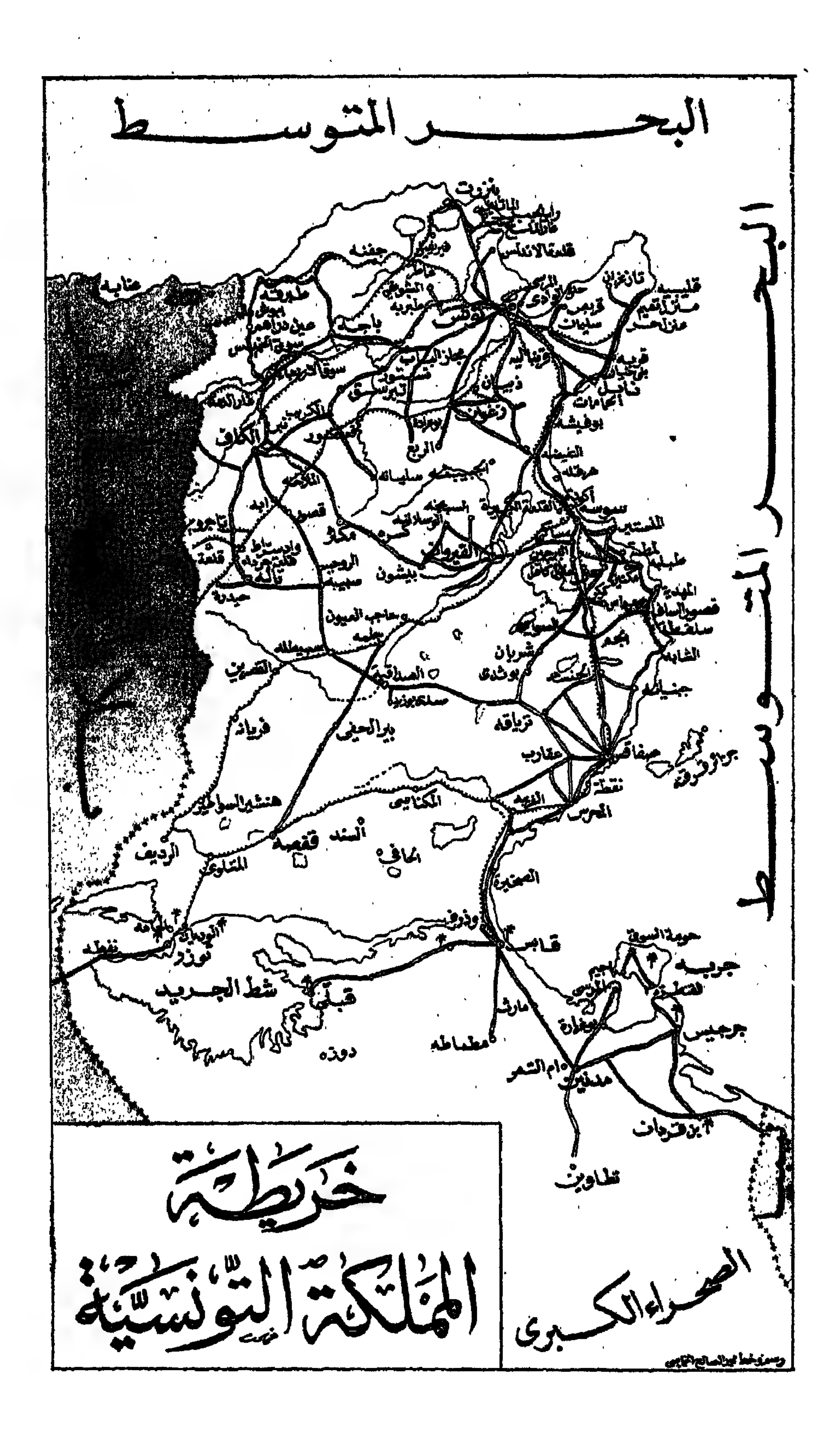
ومن حسن طالع هذه الامة ، ورأفة الاقدار بها ، ان خلفه على العرش الحسيني الميمون ، ابن عمّه مليكنا المفدّى المحبوب ، صاحب الجلالة

محمد الامين الاول

الذي ارتقى أريكة الملك في ١١ جمادى الاولى ١٣٦٢ (١٥ ماي ١٩٤٣) وكأنّ العناية الربّانية عيّنته للاخذ بناصر الامّة التونسية في سيرها نحو النهوض ، فسلك بها حثيثاً سُبل الهدى والرشاد ، وحنا عليها بعطف نادر ، حُنو الاب الرؤوف بالاولاد ، ورسم لها منهجاً قويماً للاصلاح ، وبعث فيها نهضة جديدة تبشّر بالنجاح ، وقد تسابقت القلوب الى محبّته ، وتعلّقت المهج بسدّته

فبارك اللهم ـ بفضلك ـ في حياته الغالية الى أن يبلغ المنى ، وانله من العز غاية المدى ، انك سميع الندا ، مجيب الدعا آمين !

طبع بمطبعة (دار الفنون)
بتونس



خريطة المملكة التونسية

فهرس فصول الكتاب

مصنفات المؤلف ونشراته العربية

- بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق - طبع ت
- خلاصة تاريخ تونس طبعة اولى .
- » » » طبعة ثانية - » ١٩٣٠
- » » » (منقحة) وهو هذا طبعة ثالثة - » ١٩٥٣
- المنتخبات التونسية للناشئة المدرسية طبعة اولى - » ١٣٣٦
- المنتخب المدرسي من الادب التونسي (منقح) طبعة أميرية - مصر ١٩٤٤
- الإرشاد ، الى قواعد الاقتصاد (السياسي) طبع - تونس ١٣٣٨
- شهيرات التونسيات طبع - تونس ١٣٥٣
- جزيرة قوصرة العربية طبع - مصر ١٩٥٠

النشريات

- رسائل الانتقاد (النقد الادبي) لابن شرف القيرواني - طبع دمشق - ١٣٣٠
- ملتقى السبيل (في الوعظ والحكم) لابي العلاء المعري » » - ١٣٣٠
- اعمال الاعلام (تاريخ افريقية) لابن الخطيب الاندلسي » بلرم بصقلية ١٩١٠
- وصف افريقية والاندلس ، لابن فضل الله العمري » تونس ١٣٤٠
- كتاب يفعول (بحث لغوي) للصاغاني » » ١٣٤٣
- اداب المعلمين ، لمحمد بن الامام سحنون » » ١٣٥٠
- التبصّر بالتجارة ، للجاحظ » دمشق ١٣٥٢
- الجمانة في ازالة الرطانة (بحث لغوي تاريخي) طبع المعهد العلمي مصر ١٩٥٣

مطبعة دار الفنون ١٨٧ نهج القصبة تونس